كتاب

جواب أهل العلم والايمان

بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن . من أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن

لشيخ الاسلام . وعلم الاعلام . حافظ الأمه . وأستاذ الأئمه . أبي العباس تقي الدين أحمد الشهير بابن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي

قدس الله روحه

ونور ضريحه

طبعت على نسخة بخط الاستاذ الفاضل . والعالم الكامل . مرجع أهل العراق على الاطلاق آلوسي زاده السيد محمود شكرى افندى حفظه الله

أعتني بتصحيحه السيد محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي

الطبعة الاولى

على نفقة السادات احمد ناجي الجمالي ومحمد أمين الخانجي واخيه بالاستانه ومصر

سنة ١٣٢٢ ه

مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر

فهرس جواب أهل الايمان في تفاضل آي القرآن

صحيفه

صحيفه

صحيفه

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

كتاب

جواب أهل الايمان

تحقيق ما أخبر به رسول الرحمن • من أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن

لشيخ الاسلام • وعلم الاعلام • حافظ الأمه • وأستاذ الأئمه • أبي العباس تقي الدين أحمد الشهير بابن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي

قدس الله روحه

ونور ضريحه

طبعت على نسخة بخط الاستاذ الفاضل • والعالم الكامل • مرجع أهل العراق على الاطلاق آلوسي زاده السيد محمود شكري أفندي حفظه الله

الطبعة الأولى

على نفقة السادات احمد ناجي الجمالي ومحمد أمين الخانجي واخيه بالاستانه ومصر

مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل شيخ الاسلام تقي الدين ابو العباس احمد بن تيمية رضى الله عنه عما ورد في سورة قل هو الله أحد أنها تعدل ثلث القرآن وكذلك ورد في سورة الزلزلة وقل يا أيها الكافرون والفاتحة هل ما ورد في هذه المعادلة ثابت في المجموع أم في البعض ومن روى ذلك وما ثبت من ذلك وما معنى هذه المعادلة وكلام الله واحد بالنسبة اليه عز وجل وهل هذه المفاضلة بتقدير ثبوتها متعدية الى الاسماء والصفات أم لا والصفات القديمة والاسماء القديمة هل يجوز المفاضلة بينها مع انها قديمة ومن القائل بذلك وفي أي كتبه قال ذلك ووجه الترجيح في ذلك بما يمكن من دليل عقلي ونقلي * (فأجاب)* رضي الله عنه

الحمد لله أما الذي أخرجه أصحاب الصحيح كالبخاري ومسلم فأخرجوا فضل قل هو الله أحد وروي عن الدارقطني أنه قال لم يصح في فضل سورة أكثر مما صح في فضلها (وكذلك) أخرجوا فضل فاتحة الكتاب (قال) صلى الله عليه وسلم فيها انه لم ينزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في القرآن مثلها لم يذكر فيها أنها تعدل جزأ من القرآن كما قال في قل هو الله أحد إنها تعدل ثلث القرآن (ففي) صحيح البخاري عن الضحاك المشرقي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه أيعجز أحدكم أن يقرأ بثلث القرآن في ليلة فشق ذلك عليهم وقالوا أينا يطيق ذلك يا رسول الله قال الله الواحد الصمد ثلث القرآن (وفي) صحيح مسلم عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أيعجز أحدكم أن يقرأ

في ليلة ثلث القرآن قالوا وكيف يقرأ ثلث القرآن قال قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن (وروى) مسلم أيضاً عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل قل هو الله أحد جزأ من أجزاء القرآن (وفي) صحيح البخاري عن عبد الرحمن بن عبد الله ابن أبي صعصعة عن أبي سعيد أن رجلا سمع رجلا يقرأ قل هو الله أحد يرددها فلما أصبح جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له وكان الرجل يتقالها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده انها لتعدل ثلث القرآن (وأخرج) عن أبي سعيد قال أخبرني أخي قتادة بن النعمان أن رجلا قام على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ من السحر قل هو الله أحد لا يزيد عليها الحديث بنحوه (وفي) صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحشدوا فاني سأقرأ عليكم ثلث القرآن قال فحشد من حشد ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم فقرأ قل هو الله أحد ثم دخل فقال بعضنا لبعض اني أرى هذا خبراً جاءه من السماء فذاك الذي أدخله ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال اني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألا إنها تعدل ثلث القرآن (وفي) لفظ له قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أقرأ عليكم ثلث القرآن فقرأ قل هو الله أحد الله الصمد حتى ختمها

(واما) حديث الزلزلة وقل يا ايها الكافرون فروى الترمذي عن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ اذا زلزلت عدلت له نصف القرآن ومن قرأ قل يا ايها الكافرون عدلت له ربع القرآن (وعن) ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا زلزلت تعدل نصف القرآن وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن رواهما الترمذي وقال عن كل منهما غريب

(وأما) حديث الفاتحة فروى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد بن المعلى قال كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه فقلت

يا رسول الله اني كنت أصلى قال ألم يقل الله استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم
ثم قال لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن قال الحمد لله رب العالمين هي
السبع المثاني والقرآن العظيم (وفى) السنن والمسانيد من حديث العلاء بن عبد الرحمن
عن أبيه عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب ألا
أعلمك سورة ما أنزل فى التوراة ولا فى الانجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان
مثلها قال فانى أرجو أن لا تخرج من هذا الباب حتي تعلمها . وقال فيه كيف تقرأ
في الصلاة فقرأت عليه أم القرآن فقال والذى نفسي بيده ما أنزل فى التوراة ولا في
الانجيل ولا فى الزبور ولا فى القرآن مثلها انها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي
أعطيته (ورواه) مالك فى الموطأ عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبي سعيد مولى عامر
ابن كريز مرسلا (وفى) صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط قل أعوذ برب الفلق وقل
أعوذ برب الناس وفى لفظ قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليّ آيات
لم ير مثلهن قط المعوذتان (فقد) أخبر في هذا الحديث الصحيح انه لم ير مثل
المعوذتين كما أخبر انه لم ينزل في التوراة ولا فى الانجيل ولا في الزبور ولا في
القرآن مثل الفاتحة وهذا مما يبين فضل بعض القرآن على بعض ،

فصل — وأما السؤال عن معني هذه المعادلة مع الاشتراك في كون الجميع
كلام الله فهذا السؤال يتضمن شيئين . احدهما ان كلام الله هل بعضه أفضل من
بعض أم لا . والثاني مامعنى كون قل هو الله احد تعدل ثلث القرآن وما سبب ذلك
(فنقول) اما الأول فهو مسألة كبيرة والناس متنازعون فيها نزاعا منتشراً
فطوائف يقولون بعض كلام الله أفضل من بعض كما نطقت به النصوص النبوية
حيث أخبر عن الفاتحة انه لم ينزل فى الكتب الثلاثة مثلها . وأخبر عن سورة
الاخلاص أنها تعدل ثلث القرآن وعدلها لثلثه يمنع مساواتها لمقدارها فى الحروف

وجعل آية الكرسي أعظم آية في القرآن كما ثبت ذلك فى الصحيح أيضاً وكما ثبت
ذلك في صحيح مسلم أن النبي صلي الله عليه وسلم قال لأُبي بن كعب يا أبا المنذر
أتدري أي آية فى كتاب الله معك أعظم قال قلت الله ورسوله أعلم . قال يا ابا المنذر
أتدري أي آية من كتاب الله أعظم قال فقلت الله لا إله إلا هو الحى القيوم .
قال فضرب في صدري وقال ليهنك العلم أبا المنذر . ورواه ابن أبي شيبة فى
مسنده باسناد مسلم . وزاد فيه والذي نفسي بيده ان لهذه الآية لساناً وشفتين
تقدس الملك عند ساق العرش . وروى انها سيدة آي القرآن . وقال في المعوذتين
لم ير مثلهن قط (وقد) قال تعالى ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو
مثلها . فأخبر انه يأتي بخير منها أو مثلها . وهذا بيان من الله لكون تلك الآية
قد يأتي بمثلها تارة أو خير منها أخرى . فدل ذلك على أن الآيات تتماثل تارة
وتتفاضل أخرى . وأيضاً فالتوراة والانجيل والقرآن جميعها كلام الله مع علم المسلمين
بان القرآن أفضل الكتب الثلاثة . قال تعالى وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا
لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه . وقال تعالى إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له
لحافظون . وقال تعالى قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا
القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . وقال تعالى الله نزل أحسن
الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم
وقلوبهم الى ذكر الله . فأخبر انه أحسن الحديث فدل على انه أحسن من سائر
الأحاديث المنزلة من عند الله وغير المنزلة . وقال تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثاني
والقرآن العظيم . وسواء كان المراد بذلك الفاتحة أو القرآن كله فانه يدل على ان
القرآن العظيم له اختصاص بهذا الوصف على ماليس كذلك وقد سمى الله القرآن
كله مجيداً وكريماً وعزيزاً . وقد تحدى الخلق بأن يأتوا بمثله أو بمثل عشر سور
منه أو بمثل سورة منه . فقال فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين . وقال فأتوا بعشر

سور مثله مفتريات. وقال فأتوا بسورة من مثله . وخصه بأنه لا يقرأ في الصلاة إلا هو فليس لأحد أن يقرأ غيره مع قراءته ولا بدون قراءته ولا يصلي بلا قرآن فلا يقوم غيره مقامه مع القدرة عليه . وكذلك لا يقوم غير الفاتحة مقامها من كل وجه باتفاق المسلمين سواء قيل بأنها فرض تعاد الصلاة بتركها أو قيل بأنها واجبة يأثم تاركها ولا إعادة عليه أو قيل انها سنة فلم يقل أحد ان قراءة غيرها مساو لقراءتها من كل وجه. وخص القرآن بانه لا يمس مصحفه الا طاهر كما ثبت ذلك عن الصحابة مثل سعد وسلمان وابن عمر وجماهير السلف والخلف الفقهاء الأربعة وغيرهم ومضت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابه الذي كتبه لعمرو ابن حزم الذي لا ريب فى انه كتبه له ودل على ذلك كتاب الله وكذلك لا يقرأ الجنب القرآن عند جماهير العلماء الفقهاء الاربعة وغيرهم كما دلت على ذلك السنة .

وتفضيل أحد الكلامين باحكام توجب تشريفه يدل على انه أفضل في نفسه وإلا كان ذلك ترجيحا لاحد المتماثلين بلا مرجح وهذا خلاف ما علم من سنة الرب تعالى في شرعه بل وفي خلقه وخلاف ما تدل عليه الدلائل العقلية مع الشرعية (وايضاً) فقد قال تعالى واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم . وقال تعالى فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . وقال تعالى فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها . فدل على ان فيما انزل حسن واحسن سواء كان الاحسن هو الناسخ الذي يجب الاخذ به دون المنسوخ إذ كان لا ينسخ آية الا يأتي بخير منها أو مثلها أو كان غير ذلك

(والقول) بأن كلام الله بعضه افضل من بعض هو القول المأثور عن السلف وهو الذي عليه أئمة الفقهاء من الطوائف الأربعة وغيرهم وكلام القائلين بذلك كثير منتشر في كتب كثيرة مثل ما سيأتي ذكره عن أبي العباس ابن سريج في تفسيره لهذا الحديث بان الله أنزل القرآن على ثلاثة اقسام ثلث منه أحكام

وثلث منه وعد ووعيد وثلث منه الاسماء والصفات وهذه السورة جمعت الاسماء والصفات (ومثل) ما ذكره أصحاب الشافعي واحمد في مسألة تعيين الفاتحة في الصلاة قال أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني الشافعي في كتابه الاصطلام قال وأما قولهم ان سائر الاحكام المتعلقة بالقرآن لا تختص بالفاتحة (قلت)٭ سائر الاحكام قد تعلقت بالقرآن على العموم وهذا على الخصوص بدليل ان عندنا قراءة الفاتحة على التعيين مشروعة على الوجوب وعندكم على السنة (قال) وقد قال اصحابنا ان قراءة الفاتحة لما وجبت في الصلاة وجب ان تتعين الفاتحة لان القرآن امتاز عن غيره بالاعجاز واقل ما يحصل به الاعجاز سورة وهذه السورة أشرف السور لانها السبع المثاني ولانها تصلح عوضا عن جميع السور ولا تصلح جميع السور عوضا عنها ولانها تشتمل على ما لا تشتمل سورة ما على قدرها من الآيات وذلك من الثناء والتحميد للرب والاستعانة والاستعاذة والدعاء من العبد. فاذا صارت هذه السورة أشرف السور وكانت الصلوة أشرف الحالات فتعينت اشرف السور في أشرف الحالات هذا لفظه . فقد نقل عن أصحاب الشافعي ان هذه السورة أشرف السور كما ان الصلاة اشرف الحالات وبينوا من شرفها على غيرها ما ذكروه (وكذلك) ذكر ذلك من ذكره من اصحاب احمد كالقاضي ابي يعلى ابن القاضي أبي حازم ابن القاضي ابي يعلى ابن الفراء قال في تعليقه ومن خطه نقلت قال في مسألة كون قراءة الفاتحة ركنا في الصلوة أما الطريق المعتمد في المسألة فهو انا نقول الصلوة أشرف العبادات وجبت فيها القراءة فوجب ان تتعين لها اشرف السور والفاتحة اشرف السور فوجب ان تتعين (قال) واعلم انا نحتاج في تمهيد هذه الطريقة إلى شيئين احدهما ان الصلوة اشرف العبادات . والثاني ان الحمد اشرف السور . واستدل على ذلك بما ذكره (قال) واما الدليل على ان فاتحة الكتاب اشرف فالنص والمعنى والحكم (اما النص) فما تقدم من انها عوض من غيرها . وعن ابي سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم

قال فاتحة الكتاب شفاء من السم . وقال الحسن البصري انزل الله مائة كتاب
واربعة كتب من السماء اودع علومها اربعة منها التوراة والانجيل والزبور والفرقان
ثم اودع علوم هذه الاربعة الفرقان . ثم اودع علوم القرآن المفصل ثم اودع علوم
المفصل فاتحة الكتاب . فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع كتب الله المنزلة
ومن قرأها فكأنما قرأ التوراة والانجيل والزبور والقرآن

(واما المعنى) فهو ان الله قابلها بجميع القرآن فقال ولقد آتيناك سبعاً من
المثاني والقرآن العظيم . وهذه حقيقة لا يدانيها غيرها فيها *(قلت)* هذا على
قول من جعلها هي السبع المثاني وجعل القرآن العظيم جميع القرآن . قال ولانها
تسمى أم القرآن وأم الشيء أصله ومادته ولهذا سمى الله مكة أم القرى لشرفها
عليهن ولانها السبع المثاني ولانها تشتمل على مالا تشتمل عليه سورة من الثناء والتحميد
للرب تعالى والاستعانة به والاستعاذة والدعاء من العبد على ما قال النبي صلى
الله عليه وسلم يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي الحديث المشهور .
قال ولانه لم ينزل مثلها في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ولا في شيء من
الكتب يدل عليه انها تُيَسَّر قراءتها على كل احد مالا يتيسر غيرها من القرآن .
ويضرب بها الامثال ولهذا يقال فلان يحفظ الشيء مثل الفاتحة . واذا كانت بهذه
المثابة فغيرها لا يساويها في هذا فاختصت بالشرف ولانها السبع المثاني (قال) أهل
التفسير معنى ذلك انها تثني قراءتها في كل ركعة . قال بعضهم ثنى نزولها على النبي
صلى الله عليه وسلم *(قلت)* وفيه اقوال أُخر قال

(واما الحكم) فلأنه تستحب قراءتها في كل ركعة ويكره الاخلال بها
ولولا انها اشرف والا لما اختصت بهذا المعنى يدل عليه ان عند المنازعين يعني
اصحاب أبي حنيفة ان من اخل بقراءتها وجب عليه سجود السهو (فنقول) لا يخلو
اما ان تكون ركنا أو ليست بركن فان كانت ركنا وجب ان لا تجبر بالسجود وان

لم تكن ركنا وجب ان لا يجب عليه سجود *(قلت)* يعني بذلك ان السجود
لا يجب الا بترك واجب في حال العمد فاذا سها عنه وجب له السجود وما كان
واجبا فاذا تعمد تركه وجب ان تبطل صلاته لانه لم يفعل ما أمر به بخلاف من سها
عن بعض الواجبات فان هذا يمكن أن يجبر ما تركه بسجود السهو . (ومذهب)
مالك واحمد وأبي حنيفة أن سجود السهو واجب لان من الواجبات عندهم ما اذا
تركه سهواً لم تبطل الصلاة كما لا تبطل بالزيادة سهواً باتفاق العلماء ولو زاد عمداً لبطلت
الصلاة لكن مالك واحمد في المشهور عنهما يقولان ما كان واجباً اذا تركه عمداً بطلت
صلاته واذا تركه سهواً ففيه ما يبطل الصلاة ومنه ما ينجبر بسجود السهو فترك الركوع
والسجود والقراءة يبطل الصلاة مطلقا وترك التشهد الأول عندهما يبطل الصلاة
عمده ويجب السجود لسهوه . (وأما) ابو حنيفة فيقول الواجب الذي ليس
بفرض كالفاتحة اذا تركه كان مسيئاً ولا يبطل الصلاة (والشافعي) لا يفرق
في الصلاة بين الركن والواجب ولكن فرق بينهما في الحج هو وسائر الأئمة
والمقصود هنا ذكر بعض من قال ان الفاتحة اشرف من غيرها . وقال ابو عمر بن
عبد البر . واما قول النبي صلى الله عليه وسلم لأُبيّ هل تعلم سورة ما انزل الله لا في
التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها فمعناه مثلها في جمعها
لمعاني الخير لأن فيها الثناء على الله عز وجل بما هو اهله وما يستحقه من الحمد
الذي هو له حقيقة لا لغيره لأن كل نعمة وخير منه لا من سواه فهو الخالق الرزاق
لا مانع لما اعطى ولا معطي لما منع وهو محمود على ذلك وان حمد غيره فاليه يعود
الحمد وفيها التعظيم له وانه الرب للعالم اجمع ومالك الدنيا والآخرة وهو المعبود والمستعان
وفيها تعليم الدعاء والهدى . ومجانبة طريق من ضل وغوي . والدعاء لباب العبادة
فهي أجمع سورة للخير ليس في الكتب مثلها على هذه الوجوه . قال وقد قيل ان
معنى ذلك انها تجزي الصلاة بها دون غيرها ولا يجزي غيرها عنها . وليس هذا

بتأويل مجتمع عليه . قلت يعني بذلك ان في هذا نزاعا بين العلماء وهو كون الصلاة
لا تجزئ الا بها وهذا يدل على ان الوصف الأول متفق عليه بين العلماء وهو انها
افضل السور ومن هذا الباب ما في الكتاب والسنة من تفضيل القرآن على
غيره من كلام الله التوراة والانجيل وسائر الكتب وان السلف كلهم كانوا مقرين
بذلك ليس فيهم من يقول الجميع كلام الله فلا يفضل القرآن على غيره قال الله
تعالى (الله نزل احسن الحديث كتاباً متشابها مثانى) فاخبرانه احسن الحديث وقال
تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت
من قبله لمن الغافلين) وأحسن القصص قيل انه مصدر وقيل انه مفعول به قيل
المعني نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص كما يقال نكلمك أحسن التكليم ونبين
لك أحسن البيان قال الزجاج نحن نبين لك أحسن البيان والقاص الذى يأتي
بالقصة على حقيقتها (قال وقوله) بما أوحينا اليك هذا القرآن اي بوحينا اليك
هذا القرآن ومن قال هذا قال بما أوحينا إليك هذا القرآن وعلى هذا القول فهو
كقوله نقرأ عليك أحسن القراءة ونتلو عليك أحسن التلاوة (والثاني) ان المعنى
نقص عليك أحسن مانقص أي أحسن الاخبار المقصوصات كما قال فى السورة
الاخرى « الله نزل أحسن الحديث » وقال « ومن أصدق من الله قيلا »(ويدل
على ذلك قوله في قصة موسى (فلما جاءه وقص عليه القصص) وقوله (لقد كان
في قصصهم عبرة لأولى الالباب) المراد خبرهم ونبأهم وحديثهم ليس المراد مجرد
المصدر والقولان متلازمان في المعني كما سنبينه ولهذا يجوز ان يكون هذا
المنصوب قدجمع معني المصدر ومعنى المفعول به لان فيه كلا المعنيين بخلاف المواضع
التي يباين فيها الفعل المفعول به فانه اذا انتصب بهذا المعني امتنع المعني الآخر ومن
رجح الأول من النحاة كالزجاج وغيره قالوا القصص مصدر يقال قص أثره
يقصه قصصاً ومنه قوله تعالى (فارتد على آثارهما قصصا) . وكذلك اقتص أثره

وتقصص وقد اقتصصت الحديث رويته على وجهه وقد اقتص عليه الخبر قصصاً
(وليس) القصص بالفتح جمع قصة كما يظنه بعض العامة فان ذلك يقال فى قصص
بالكسر واحدة قصة والقصة هى الأمر والحديث الذى يقص فعلة بمعنى مفعول
وجمعه قصص بالكسر (وقوله) (نحن نقص عليك أحسن القصص) بالفتح
لم يقل أحسن القصص بالكسر ولكن بعض الناس ظنوا ان المراد أحسن القصص
بالكسر وأن تلك القصة قصة يوسف وذكر هذا طائفة من المفسرين (ثم ذكروا)
لم سميت أحسن القصص فقيل لانه ليس في القرآن قصة تتضمن من العبر والحكم
والنكت ماتتضمن هذه القصة . وقيل لامتداد الاوقات بين مبتداها ومنتهاها
. وقيل لحسن محاورة يوسف واخوته وصبره على اذاهم وإغضائه عن ذكر
ماتعاطوه عند اللقاء وكرمه فى العفو . وقيل لان فيها ذكر الانبياء والصالحين
والملائكة والشياطين والانس والجن والانعام والطير وسير الملوك والمماليك والتجار
والعلماء والجهال والرجال والنساء ومكرهن وحيلهن وفيها أيضاً ذكر التوحيد
والفقه والسير وتعبير الرؤيا والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش فصارت أحسن
القصص لما فيها من المعاني والفوائد التي تصلح للدين والدنيا . وقيل فيها ذكر
الحبيب والمحبوب . وقيل أحسن بمعنى أعجب . والذين يجعلون قصة يوسف أحسن
القصص منهم من يعلم أن القصص بالفتح هو النبأ والخبر ويقولون هى أحسن
الاخبار والأنباء وكثير منهم يظن ان المراد أحسن القصص بالكسر . وهؤلاء
جهال بالعربية وكلا القولين خطأ وليس المراد بقوله أحسن القصص قصة يوسف
وحدها بل هى مما قصه الله ومما يدخل في أحسن القصص ولهذا قال تعالى في
آخر السورة (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى أفلم
يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير
للذين اتقوا أفلا تعقلون حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم

نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين لقد كان في قصصهم عبرة
لأولى الالباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل
كل شيء وهدي ورحمة لقوم يؤمنون) (فبين) أن العبرة في قصص المرسلين وأمر
بالنظر في عاقبة من كذبهم وعاقبتهم بالنصر ومن المعلوم أن قصة موسى وماجري له
مع فرعون وغيره أعظم وأشرف من قصة يوسف بكثير كثير ولهذا هي أعظم قصص
الانبياء التي تذكر في القرآن ثناها الله أكثر من غيرها وبسطها وطولها أكثر من
غيرها بل قصص سائر الانبياء كنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم من المرسلين
أعظم من قصة يوسف ولهذا ثني الله تلك القصص في القرآن ولم يثن قصة يوسف
وذلك لان الذين عادوا يوسف لم يعادوه على الدين بل عادوه عداوة دنيوية وحسدوه
على محبة أبيه له وظلموه فصبر واتقى الله وابتلى صلوات الله عليه بمن ظلمه وبمن دعاه
الى الفاحشة فصبر واتقى الله في هذا وفي هذا وابتلى أيضاً بالملك فابتلى بالسراء
والضراء فصبر واتقى الله في هذا وهذا فكانت قصته من أحسن القصص وهي
أحسن من القصص التي لم تقص في القرآن فان الناس قد يظلمون ويحسدون
ويدعون الى الفاحشة ويبتلون بالملك لكن ليس من لم يذكر في القرآن ممن اتقى
الله وصبر مثل يوسف ولا فيهم من كانت عاقبته أحسن العواقب في الدنيا والآخرة
مثل يوسف (وهذا) كما أن قصة اهل الكهف وقصة ذى القرنين كل منهما
هي في جنسها أحسن من غيرها فقصة ذى القرنين أحسن قصص الملوك وقصة
أهل الكهف احسن قصص اولياء الله الذين كانوا في زمن الفترة فقوله تعالى
(نحن نقص عليك أحسن القصص) يتناول كل ماقصه في كتابه فهو أحسن مما
لم يقصه ليس المراد ان قصة يوسف أحسن ماقص في القرآن وأين ماجري
ليوسف مما جري لموسى ونوح وابراهيم وغيرهم من الرسل وأين ماعودى أولئك
مما عودي فيه يوسف وأين فضل أولئك عند الله وعلو درجتهم من يوسف

صلوات الله عليهم اجمعين وأين نصر أولئك من نصر يوسف فان يوسف كما قال
الله تعالى (وكذلك مكنا ليوسف في الارض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا
من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) وأذل الله الذين ظلموه ثم تابوا فكان فيها من
العبرة ان المظلوم المحسود اذا صبر واتقي الله كانت له العاقبة وان الظالم الحاسد قد
يتوب الله عليه ويعفو عنه وان المظلوم ينبغي له العفو عن ظالمه اذا قدر عليه (وبهذا)
اعتبر النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة لما قام على باب الكعبة وقد أذل الله
له الذين عادوه وحاربوه من الطلقاء فقال ماذا أنتم قائلون فقالوا نقول أخ كريم
وابن عم كريم فقال انى قائل لكم كما قال يوسف لاخوته (لا تثريب عليكم اليوم
يغفر الله لكم وهو أرحم الرحمين) وكذلك عائشة لما ظلمت وافترى عليها وقيل
لها ان كنت المت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه فقالت في كلامها أقول كما
قال أبو يوسف فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون ففي قصة يوسف أنواع من
العبرة للمظلوم والمحسود والمبتلى بدواعي الفواحش والذنوب وغير ذلك لكن
أين قصة نوح وابراهيم وموسى والمسيح ونحوهم ممن كانت قصته أنه دعا الخلق الى
عبادة الله وحده لا شريك له فكذبوه وآذوه وآذوا من آمن به فان هؤلاء أوذوا
اختيارا منهم لعبادة الله فعودوا وأوذوا في محبة الله وعبادته باختيارهم فانهم لولا
إيمانهم ودعوتهم الخلق الى عبادة الله لما أوذوا وهذا بخلاف من أوذي بغير
اختياره كما أخذ يوسف من أبيه بغير اختياره ولهذا كانت محبة يوسف بالنسوة
وامرأة العزيز واختياره السجن على معصية الله أعظم من إيمانه ودرجته عند الله
وأجره من صبره على ظلم اخوته له ولهذا يعظم يوسف بهذا أعظم مما يعظم بذلك
ولهذا قال تعالى (فيه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)
وهذا كالصبر عن المعاصي مع الصبر على المصائب فالاول أعظم وهو صبر المتقين
أولياء الله . قال سهل بن عبد الله التستري أفعال البر يفعلها البر والفاجر ولن يصبر

عن المعاصي الاصديق ويوسف صلوات الله عليه كان صديقاً نبيا وأما من يظلم
بغير اختياره ويصبر فهذا كثير ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم (وكذلك)
اذا مكن المظلوم وقهر ظالمه فتاب الظالم وخضع له فعفوه عنه من المحاسن والفضائل
لكن هذا يفعله خلق كثير من أهل الدين وعقلاء الدنيا فان حلم الملوك والولاة
أجمع لامرهم وطاعة الناس لهم وتأليفهم لقلوب الناس وكان معاوية من احلم
الناس وكان المأمون حليما حتى كان يقول لو علم الناس محبتي في العفو تقربوا الى
بالذنوب ولهذا لما قدر على من نازعه في الملك وهو عمه ابراهيم بن المهدى عفاعنه .
(وأما) الصبر عن الشهوات والهوى الغالب لله لارجاء لمخلوق ولا خوفا منه
مع كثرة الدواعي الى فعل الفاحشة واختياره الحبس الطويل على ذلك كما قال
يوسف (رب السجن أحب إلي مما يدعونني اليه) فهذا لا يوجد نظيره الا في
خيار عباد الله الصالحين وأوليائه المتقين كما قال تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء
والفحشاء انه من عبادنا المخلصين) فهذا من عباد الله المخلصين الذين قال الله تعالى
فيهم (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) ولهذا لم يصدر من يوسف الصديق
ذنب أصلا بل الهم الذى هم به لما تركه لله كتب له به حسنة ولهذا لم يذكر عنه
سبحانه توبة واستغفارا كما ذكر توبة الانبياء كآدم وداود ونوح وغيرهم وان لم يذكر
عن أولئك الانبياء فاحشة ولله الحمد وإنما كانت توباتهم من أمور أخرهي حسنات
بالنسبة الى غيرهم ولهذا لا يعرف ليوسف نظير فيما ابتلى به من دواعي الفاحشة
وتقواه وصبره فى ذلك وانما يعرف لغيره ماهو دون ذلك كما في (الصحيحين) عن
النبي صلي الله عليه وسلم انه قال سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لاظل
الاظله امام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله ورجل معلق قلبه بالمسجد اذا خرج
حتى يعود اليه ورجلان تحابا في الله اجتمعا في الله وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة
ذات منصب وجمال فقال اني أخاف الله ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه

ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتي لاتعلم شماله ماتنفق يمينه (واذا) كان الصبر
على الاذي لئلا يفعل الفاحشة أعظم من صبره على ظلم اخوته فكيف يصبر الرسل
على أذى المكذبين لئلا يتركوا ماأمروا به من دعوتهم الى عبادة الله وحده
وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر (فهذا الصبر) هو من جنس الجهاد في سبيل
الله اذ كان الجهاد مقصودا به ان تكون كلمة الله هي العليا وان الدين كله لله فالجهاد
والصبر فيه أفضل الاعمال كما قال النبي صلى الله عليه وسلم رأس الامر الاسلام وعموده
الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وهو حديث صحيح رواه الامام أحمد والترمذي
وصححه وهو من حديث معاذ بن جبل الطويل وهو أحب الاعمال الى الله
فالصبر على تلك المعصية صبر المهاجر الذي هجر مانهي عنه وصبر المجاهد الذي
جاهد نفسه فى الله وجاهد عدو الله الظاهر والباطن والمهاجر الصابر على ترك
الذنب انما جاهد نفسه وشيطانه ثم يجاهد عدوالله الظاهر لتكون كلمة الله هي
العليا ويكون الدين كله لله وصبر المظلوم صبر المصاب لكن المصاب بمصيبة
سماوية تصبر نفسه مالا تصبر نفس من ظلمه الناس فان ذاك يستشعر أن الله
هو الذي فعل به هذا فتيأس نفسه من الدفع والمعاقبة وأخذ الثار بخلاف المظلوم
الذى ظلمه الناس فان نفسه تستشعر ان ظالمه يمكن دفعه وعقوبته وأخذ ثاره منه
فالصبر على هذه المصيبة أفضل وأعظم كصبر يوسف صلوات الله عليه وسلامه
وهذا يكون لان صاحبه يعلم ان الله قدر ذلك فيصبر على ذلك كالمصائب السماوية
ويكون أيضاً لينال ثواب الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين
وليسلم قلبه من الغل للناس وكلا النوعين يشترك في ان صاحبه يستشعر ان ذلك
بذنوبه وهو مما يكفر الله به سيئاته ويستغفر ويتوب وأيضاً فيرى ان ذلك الصبر
واجب عليه وان الجزع مما يعاقب عليه وان ارتقى الى الرضا رأي ان الرضا جنة الدنيا
ومستراح العابدين وباب الله الاعظم وان رأى ذلك نعمة لما فيه من صلاح قلبه

ودينه وقربه الى الله وتكفير سيئاته وصونه عن ذنوب تدعوه اليها شياطين الانس
والجن شكر الله على هذه النعم فالمصائب السماوية والآدمية تشترك في هذه الامور
ومعرفة الناس بهذه الامور وعلمهم بها هو من فضل الله يمن به على من يشاء من
عباده ولهذا كانت أحوال الناس فى المصائب وغيرها متباينة تباينا عظيما (ثم)
اذا شهد العبد القدر وان هذا أمر قدره الله وقضاه وهو الخالق له فهو مع الصبر
يسلم للرب القادر المالك الذي يفعل مايشاء وهذا حال الصابر وقد يسلم تسليمه
للرب المحسن المدبر له بحسن اختياره الذى لا يقضى للمؤمن قضاء الا كان خيراله
ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيراله كما رواه (مسلم)
في صحيحه عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم (وهذا) تسليم راض لعلمه
بحسن اختيار الله وهذا يورث الشكر وقد يسلم تسليمه للرب المحسن اليه المتفضل
عليه بنعم عظيمة وان لم ير هذا نعمة فيكون تسليمه تسليم راض غير شاكر وقد
يسلم تسليمه لله الذى لا اله الا هو المستحق لان يعبد لذاته وهو محمود على كل
ما يفعله فانه عليم حكيم رحيم لا يفعل شيئاً الا لحكمة وهو مستحق لمحبته وعبادته
وحمده على كل ما خلقه فهذا تسليم عبد عابد حامد وهذا من الحمادين الذين هم أول
من يدعى الى الجنة وبينهم صاحب لواء الحمد وآدم فمن دونه تحت لوائه وهذا يكون
القضاء خيراً له ونعمة من الله عليه لكن يكون حمده لله ورضاه بقضائه من حيث
عرف الله واحبه وعبده لاستحقاقه الألوهية وحده لا شريك له فيكون صبره
ورضاه وحمده من عبادته الصادرة عن هذه المعرفة والشهادة وهذا يشهد بقلبه
انه لا اله الا الله والاله عنده هو المستحق للعبادة بخلاف من لم يشهد الا مجرد
ربوبيته ومشيئته وقدرته أو مجرد احسانه ونعمته فانهما مشهدان ناقصان قاصران
وانما يقتصر عليهما من نقص علمه بالله وبدينه الذى بعث به رسله وانزل به كتبه
كأهل البدع من الجهمية والقدرية الجبرية والقدرية المعتزلة فان الاول مشهد

أولئك والثاني مشهد هؤلاء وشهود ربوبيته وقدرته ومشيئته مع شهود رحمته
واحسانه وفضله مع شهود إلهيته ومحبته ورضاه وحمده والثناء عليه ومجده هو
مشهد أهل العلم والايمان من اهل السنة والجماعة التابعين باحسان للسابقين
الاولين من المهاجرين والانصار . وهذه الامور لبسطها موضع آخر
(والمقصود هنا) ان هذا يكون للمؤمن في عموم المصائب وما يكون بافعال
المؤمنين فله فيه كظم الغيظ والعفو عن الناس ويوسف الصديق صلوات الله
عليه كان له هذا وأعلى من ذلك الصبر عن الفاحشة مع قوة الداعي اليها فهذا
الصبر أعظم من ذلك الصبر بل وأعظم من الصبر على الطاعة . ولهذا قال سبحانه
في وصف المتقين الذين أعد لهم الجنة (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها
السموات والارض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين
الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا
أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على
ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الانهار
خالدين فيها ونعم أجر العاملين) فوصفهم بالكرم والحلم بالانفاق وكظم الغيظ
والعفو عن الناس ثم لما جاءت الشهوات المحرمات وصفهم بالتوبة منها فقال (والذين
اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب
الا الله ولم يصروا على ما فعلوا) فوصفهم بالتوبة منها وترك الاصرار عليها لا بترك
ذلك بالكلية فان النبي صلى الله عليه وسلم قال فى الحديث الصحيح كتب على ابن
آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فالعينان تزنيان وزناهما النظر . والاذن
تزنى وزناها السمع . واللسان يزنى وزناه المنطق . واليد تزني وزناها البطش .
والرجل تزنى وزناها المشي . والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه .
وفي الحديث كل بني آدم خطاء . وخير الخطائين التوابون . فلا بد للانسان من

مقدمات الكبيرة وكثير منهم يقع في الكبيرة فيؤمر بالتوبة ويؤمرون ان
لا يصروا على صغيرة فانه لا صغيرة مع اصرار . ولا كبيرة مع استغفار .
ويوسف صلى الله عليه وسلم صبر عن الذنب مطلقاً ولم يوجد منه الا همّ تركه لله
كتب له به حسنة (وقد ذكر) طائفة من المفسرين انه وجد منه بعض المقدمات
مثل حل السراويل والجلوس مجلس الخاتن ونحو ذلك لكن ليس هذا منقولا
نقلا يصدق به فان هذا لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم . ومثل هذه الاسرائيليات
اذا لم تنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعرف صدقها ولهذا لا يجوز تصديقها
ولا تكذيبها الا بدليل والله تعالى يقول في القرآن (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء)
فدل القرآن على انه صرف عنه السوء والفحشاء مطلقا ولو كان قد فعل صغيرة
لتاب منها . والقرآن ليس فيه ذكر توبته ومن وقع منه بعض أنواع السوء والفحشاء
لم يكن ذلك قد صرف عنه بل يكون قد وقع وتاب الله عليه منه والقرآن يدل
على خلاف هذا . وقد شهدت النسوة له انهن ما علمن عليه من سوء ولو كان
قد بدت منه هذه المقدمات لكانت المرأة قد رأت ذلك وهي من النسوة اللاتي
شهدن وقلن ما علمنا عليه من سوء . وقالت مع ذلك (ولقد راودته عن نفسه
فاستعصم) وقالت (أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين) (وقوله) سوء نكرة
في سياق النفي فدل ذلك على ان المرأة لم تر منه سوأ فان الهم في القلب لم تطلع
عليه ولو اطلعت عليه فانه اذا تركه لله كان حسنة ولو تركه مطلقاً لم يكن حسنة
ولا سيئة فانه لا إثم فيه الا مع القول أو العمل (وأما) قصة نوح وابراهيم وموسى
وعيسى وغيرهم صلوات الله عليهم فتلك أعظم والواقع فيها من الجانبين فما فعلته
الانبياء من الدعوة الى توحيد الله وعبادته ودينه واظهار آياته وأمره ونهيه ووعده
ووعيده ومجاهدة المكذبين لهم والصبر على أذاهم هو أعظم عند الله ولهذا كانوا
أفضل من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين وما صبروا عليه وعنه اعظم من الذي

صبر يوسف عليه وعنه وعبادتهم لله وطاعتهم وتقواهم وصبرهم بما فعلوه أعظم من
طاعة يوسف وعبادته وتقواه أولئك أولو العزم الذين خصهم الله بالذكر في قوله
(واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم)
وقال تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا
به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) وهم يوم القيامة
الذين تطلب منهم الامم الشفاعة وبهم أمر خاتم الرسل أن يقتدى في الصبر فقيل
له فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم . فقصصهم أحسن من
قصة يوسف ولهذا ثناها الله في القرآن . لا سيما قصة موسى (قال) الامام أحمد
ابن حنبل أحسن أحاديث الانبياء حديث تكليم الله لموسى (والمقصود هنا)
ان قوله أحسن القصص قد قيل انه مصدر وقيل انه مفعول به والقولان
متلازمان لكن الصحيح ان القصص مفعول به وان كان أصله مصدرا فقد
غلب استعماله في المقصوص كما في لفظ الخبر والنبأ والاستعمال يدل على ذلك
كما تقدم ذكره (وقد) اعترف بذلك أهل اللغة قال الجوهري وقد قص عليه
الخبر قصصاً والاسم أيضا القصص بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار اغلب
عليه فقوله أحسن القصص كقوله نخبرك أحسن الخبر وننبؤك أحسن النبأ ونحدثك
أحسن الحديث (ولفظ) الكلام يراد به مصدر كلمه تكليما ويراد به نفس القول
فان القول فيه فعل من القائل هو مسمى المصدر والقول ينشأ عن ذلك الفعل
ولهذا تارة يجعل القول نوعا من العمل لانه حاصل بعمل وتارة يجعل قسيما له
يقال القول والعمل (وكذلك) قد يقال في لفظ القصص والبيان والحديث والخبر
ونحو ذلك فاذا أريد بالقصص ونحوه المصدر الذي سماه الفعل فهو مستلزم للقول
والقول تابع واذا أريد به نفس الكلام والقول فهو مستلزم للفعل تابع للفعل
فالمصادر الجارية على سنن الافعال يراد بها الفعل كقولك كلمته تكليما وأخبرته

إخباراً وأما مالم يجر على سنن الفعل مثل الكلام والخبر ونحو ذلك فان هـذا
اذا اطلق أريد به القول وكذلك قد يقال في لفظ القصص فان مصدره القياسي
قصاً مثل عده عدا ومده مدا وكذلك قصه قصا وأما قصص فليس هو قياس
مصدر المضعف ولم يذكروا على كونه مصدرا الا قوله فارتدا على آثارهما قصصا
وهذا لايدل على انه مصدر بل قد يكون اسم مصدر أقيم مقامه كقوله والله أنبتكم
من الارض نباتا وان جعل مصدر قص الأثر لم يلزم ان يكون مصدر قص
الحديث لان الحـديث خبر ونبأ فكان لفظ قصص كلفظ خبر ونبأ وكلام
وأسماء المصادر فى باب الـكلام تتضمن القول نفسه وتدل على فعل القائل بطريق
التضمن واللزوم فانك اذا قلت الـكلام والخبر والحديث والنبأ والقصص لم يكن
مثل قولك التكليم والانباء والاخبار والتحديث ولهذا يقال انه منصوب على المفعول
به واسم المصدر ينتصب على المصدر كما في قوله والله أنبتكم من الارض نباتاً فاذا
قال كلمته كلاماً حسنا وحدثته حديثاً طيبا وأخبرته أخباراً سارة وقصصت عليه
قصصاً صادقة ونحو ذلك كان هذا منصوبا على المفعول به لم يكن هذا كقولك كلمته
تكليما وأنبأته إنباء . فتبين أن قوله أحسن القصص منصوب على المفعول وكل
ماقصه الله فهو أحسـن القصص ولـكن هذا اذا كان يتضمن معنى المصدر ومعنى
المفعول به جاز أن ينتصب على المعنيين جميعا فانهما متلازمان تقول قلت قولا حسنا
وقد أسمعته قولا ولم يسمع الفعل الذى هو مسمي المصدر وانما سمع الصوت وتقول
قال يقول قولا فتجعله مصدرا والصوت نفسه ليس هو مسمي المصدر انما مسمي
المصدر الفعل المستلزم للصوت ولـكن هما متلازمان

ولهذا تنازع أهل السنة والحديث في التلاوة والقرآن هل هى القرآن المتلو أم لا
وقد تفطن ابن قتيبة وغيره لما يناسب هذا المعني وتكلم عليه وسبب الاشتباه أن
المتلو هو القرآن نفسه الذي هو الـكلام والتلاوة قد يراد بها هذا وقد يراد بها نفس

حركة التالى وفعله وقد يراد بها الامران جميعاً فمن قال التلاوة هى المتلو أراد بالتلاوة
نفس القرآن المسموع وذلك هو المتلو ومن قال غيره أراد بالتلاوة حركة العبد وفعله
وتلك ليست هى القرآن ومن نهي عن أن يقال التلاوة هى المتلو أو غير المتلو فلان لفظ
التلاوة يجمع الأمرين كما نهى الامام أحمد وغيره عن أن يقال لفظي بالقرآن مخلوق
أو غير مخلوق لان اللفظ يراد به الملفوظ نفسه الذي هو كلام الله ويراد به مصدر
لفظ يلفظ لفظا وهو فعل العبد وأطلق قوم من أهل الحديث أن لفظي بالقرآن
غير مخلوق واطلق ناس آخرون أن لفظي به مخلوق قال ابن قتيبة لم يتنازع أهل
الحديث في شئ من أقوالهم الا فى مسئلة اللفظ وهذا كان تنازع أهل الحديث
والسنة الذين كانوا فى زمن أحمد بن حنبل واصحابه الذين أدركوه ثم جاء بعـد
هؤلاء طائفة قالوا التلاوة غير المتلو وأرادوا بالتلاوة نفس كلام الله العربى الذي
هو القرآن وأرادوا بالمتلو معني واحـدا قائماً بذات الله وقال آخرون التلاوة هي
المتلو وأرادوا بالتلاوة نفس الاصوات المسموعة من القرآن جعلوا ماسمع من
الاصوات هو نفس الـكلام الذى ليس بمخلوق ولم يميزوا بين سماع الـكلام من
المتكلم وبين سماعه من المبلغ له عنه فزاد كل من هؤلاء وهؤلاء من البدع مالم
يكن يقوله أحد من أهل السنة والعلم فلم يكن في أهل السـنة من يقول أن القرآن
العربى ليس هو كلام الله ولا يجعل المتلو مجرد معنى ولا كان فيهم من يقول إن
أصوات العباد وغـيرها من خصائصهم غير مخلوق بل هم كلهم متفقون على أن
القرآن المتلو هو القرآن العربي الذي نزله روح القدس من الله بالحق وهو كلام
الله الذي تكلم به (ولـكن) تنازعوا في تلاوة العباد له هل هي القرآن نفسه أم
هى الفعل الذي يقرأ به القرآن (والتحقيق) ان لفظ التلاوة يراد به هذا وهذا
ولفظ القرآن يراد به المصدر ويراد به الـكلام قال الله تعالى إن علينا جمعه وقرآنه
فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه (وفي الصحيحين) عن ابن عباس قال إن علينا

علينا أن نجمعه في قلبك وتقرأه بلسانك وقال أهل العربية يقال قرأت الكتاب قراءة وقرآنا ومنه قول حسان

ضحوا باشمط عنوان السجود به   يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

وقد قال تعالى (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) وقال تعالى (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) وقال تعالى (واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا) وهم انما يستمعون الكلام نفسه لا يستمعون مسمي المصدر الذى هو الفعل فان ذاك لا يسمع (فقوله) نحن نقص عليك أحسن القصص من هذا الباب من باب نقرأ عليك أحسن القصص ونتلو عليك أحسن القصص كما قال تعالى (نتلو عليك من نبأ موسي وفرعون بالحق) وقال فاذا قرأناه قال ابن عباس أي قراءة جبريل فاتبع قرآنه فاستمع له حتى يقضى قراءته (والمشهور) في قوله واذا قرأت القرآن انه منصوب على المفعول به فكذلك أحسن القصص لكن في كلاهما معني المصدر أيضاً كما تقدم ففيه معنى المفعول به ومعني المصدر جميعا وقد يغلب هذا كما في قوله ان علينا جمعه وقرآنه فالمراد هنا نفس مسمي المصدر وقد يغلب هذا تارة كما في قوله (فاستمعوا له وأنصتوا) وقوله (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) وقوله (ان هذا القرآن يهدى للتي هى أقوم) (وغالب) ما يذكر لفظ القرآن إنما يراد به نفس الكلام لا يراد به التكلم بالكلام الذى هو مسمي المصدر ومثل هذا كثير فى اللغة يكون أمران متلازمان اما دائما واما غالبا فيطلق الاسم عليهما ويغلب هذا تارة وهذا تارة وقد يقع على أحدهما مفرداً كلفظ النهر والقرية والميزاب ونحو ذلك مما فيه حال ومحل فالاسم يتناول مجري الماء والماء الجاري وكذلك لفظ القرية يتناول المساكن والسكان ثم تقول حفر النهر فالمراد به المجرى وتقول جرى النهر فالمراد به الماء وتقول جري الميزاب تعني الماء

ونصب الميزاب تعني الخشب (وقال تعالي وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع) والمراد السكان في المكان وقال تعالى (وكم من قرية اهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون) وقال تعالى (واسأل القرية التي كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها) وقال تعالى (وتلك القري أهلكناهم لما ظلموا) وقال تعالى (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة) وقال تعالى (لتنذر أم القرى ومن حولها) وقال تعالى (فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد) والخاوي على عروشه المكان لا السكان وقال تعالي (أو كالذى مر على قرية وهي خاوية على عروشها) لما كان المقصود بالقرية هم السكان كان ارادتهم أكثر فى كتاب الله وكذلك لفظ النهر لما كان المقصود هو الماء كان ارادته أكثر كقوله (وجعلنا الانهار تجري من تحتهم) وقوله (وفجرنا خلالهما نهرا) فهذا كثيرا أكثر من قولهم حفرنا النهر . وكذلك اطلاق لفظ القرآن على نفس الكلام اكثر من اطلاقه على نفس التكلم . وكذلك لفظ الكلام والقول والقصص وسائر أنواع الكلام يراد بها نفس الكلام اكثر مما يراد بها فعل المتكلم وهذه الامور لبسطها موضع آخر .

والمقصود هنا ان قوله تعالى نحن نقص عليك احسن القصص المراد الكلام الذي هو أحسن القصص وهو عام فى كل ما قصه الله لم يخص به سورة يوسف ولهذا قال بما أوحينا اليك هذا القرآن ولم يقل بما أوحينا اليك هذه السورة والآثار المأثورة فى ذلك عن السلف تدل كلها على ذلك . وعلى أنهم كانوا يعتقدون أن القرآن أفضل من سائر الكتب وهو المراد . والمراد من هذا حاصل على كل تقدير فسواء كان أحسن القصص مصدراً أو مفعولا به أو جامعاً للأمرين فهو يدل على أن القرآن وما في القرآن من القصص أحسن من غيره فانا قد ذكرنا أنهما متلازمان فايهما كان احسن كان الآخر احسن . فتبين ان قوله تعالى احسن

القصص كقوله (الله نزل احسن الحديث) والآثار السلفية تدل على ذلك .
والسلف كانوا مقرين بان القرآن احسن الحديث واحسن القصص . كما انه
المهيمن على ما بين يديه من كتب السماء فكيف يقال ان كلام الله كله لا فضل
لبعضه على بعض . وروى ابن ابي حاتم عن المسعودى عن القاسم ان اصحاب رسول
الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة فقالوا حدثنا يارسول الله فانزل الله نحن نقص عليك
احسن القصص ثم ملوا ملة فقالوا حدثنا يا رسول الله فنزلت الله نزل احسن
الحديث ثم ملوا ملة فقالوا حدثنا يارسول الله فانزل الله الم يأن للذين آمنوا ان
تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق . وقد روى ابو عبيد في فضائل القرآن
عن بعض التابعين فقال حدثنا حجاج عن المسعودي عن عون بن عبد الله بن عتبة
قال مل اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملة فقالوا يارسول الله حدثنا فانزل
الله تعالى الله نزل احسن الحديث قال ثم نعته فقال كتابا متشابها مثاني تقشعر منه
جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله الى آخر الآية قال
ثم ملوا ملة اخرى فقالوا يارسول الله حدثنا شيئاً فوق الحديث ودون القرآن
يعنون القصص فانزل الله (الر تلك آيات الكتاب المبين الى قوله نحن نقص عليك
احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين) قال
فان ارادوا الحديث دلهم على احسن الحديث وان ارادوا القصص دلهم على احسن
القصص القرآن ورواه ابن ابي حاتم باسناد حسن مرفوعا عن مصعب بن سعد
عن سعد قال نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن فتلاه عليهم زمانا
فقالوا يارسول الله لو قصصت علينا فانزل الله تعالى الر تلك آيات الكتاب المبين
نحن نقص عليك احسن القصص فتلاه عليهم زمانا . ولما كان القرآن احسن الكلام
نهوا عن اتباع ما سواه قال تعالى (اولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم)
وروى النسائي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه رأى بيد عمر بن الخطاب

لو كان موسى حيا ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم وفي رواية ماوسعه الا اتباعى
وفي لفظ فتغير وجه النبي صلى الله عليه وسلم لما عرض عليه عمر ذلك فقال له
بعض الانصار يا ابن الخطاب الا ترى الى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
عمر رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا ولهذا كان الصحابة ينهون عن اتباع
كتب غير القرآن وعمر انتفع بهذا حتى انه لما فتحت الاسكندرية وجد فيها
كتب كثيرة من كتب الروم فكتبوا فيها الى عمر فأمر بها أن تحرق وقال حسبنا
كتاب الله . وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبي ثنا اسمعيل بن خليل ثنا على بن مسهر
ثنا عبد الرحمن بن اسحق عن خليفة بن قيس عن خالد بن عرفطة قال كنت عند عمر
ابن الخطاب إذ أتى برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس . فقال له عمر أنت فلان
ابن فلان العبدى قال نعم قال وأنت النازل بالسوس قال نعم فضربه بقناة معه فقال له ماذنبي
قال فقرأ عليه (الر تلك آيات الكتاب المبين نحن نقص عليك أحسن القصص بما
أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين) فقرأها عليه ثلاث مرات
وضربه ثلاث ضربات . ثم قال له عمر أنت الذى انتسخت كتاب دانيال قال نعم قال
اذهب فامحه بالحميم والصوف الابيض ولا تقرأه ولا تقربه أحدا من الناس فقرأ
عليه عمر هذه الاية ليبين له أن القرآن أحسن القصص فلا يحتاج معه الى غيره . وهذا
يدل على أن القصص عام لا يختص بسورة يوسف ويدل على أنهم كانوا يعلمون ان
القرآن أفضل من كتاب دانيال ونحوه من كتب الانبياء وكذلك مثل هذه القصة
مأثورة عن ابن مسعود لما أتى بها كتب من الكتب محاها وذكر فضيلة القرآن كما فعل
عمر رضي الله عنهما . وروي ابن أبي حاتم عن قتادة (نحن نقص عليك أحسن القصص)
قال من الكتب الماضية وامور الله السالفة في الامم (بما أوحينا اليك هذا القرآن)
وهذا يدل على أن أحسن القصص يعم هذا كله بل لفظ القصص يتناول ما قصه الانبياء
من آيات الله غير أخبار الامم كقوله تعالى (ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي

وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا) وقال في موضع آخر (يتلون عليكم
آيات ربكم) وقد قال تعالى (ثم أنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه
من الكتاب ومهيمناً عليه) وروى ابن أبي حاتم بالاسناد المعروف عن ابن عباس قال
مؤتمنا عليه) قال وروى عن عكرمة والحسن وسعيد بن جبير وعطاء الخراساني انه
الامين . وروى من تفسير الوالبي عن ابن عباس قال المهيمن الامين قال على كل كتاب
قبله . وكذلك عن الحسن قال مصدقا بهذه الكتب وأمينا عليها . ومن تفسير الوالبي
ايضا عن ابن عباس ومهيمنا عليه قال شهيداً وكذلك قال السدي عن ابن عباس . وقال
في قوله ومهيمنا عليه على كل كتاب قبله . قال وروى عن سعيد بن جبير وعكرمة
وعطية وعطاء الخراساني ومحمد بن كعب وقتادة والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن
أسلم نحو ذلك وابن ابي حاتم قد ذكر في أول كتابه في التفسير انه طلب منه اخراج
تفسير القرآن مختصراً بأصح الاسانيد وانه تحري اخراجه باصح الاخبار اسناداً
واشبعها متنا وذكر اسناده عن كل من نقل عنه شيئا

(فالسلف) كلهم متفقون على ان القرآن هو المهيمن المؤتمن الشاهد على مابين
يديه من الكتب ومعلوم ان المهيمن على الشئ اعلى منه مرتبة . ومن اسماء الله
المهيمن ويسمى الحاكم على الناس القائم بامورهم المهيمن . قال المبرد والجوهري
وغيرهما المهيمن في اللغة المؤتمن . وقال الخليل الرقيب الحافظ . وقال الخطابي المهيمن
الشهيد قال وقال بعض اهل اللغة الهيمنة القيام على الشئ والرعاية له وانشد

الا ان خير الناس بعد نبيهم — مهيمنه التاليه في العرف والنكر

يريد القائم على الناس بالرعاية لهم . وفي مهيمن قولان قيل اصله مؤيمن والهاء
مبدلة من الهمزة وقيل بل الهاء اصلية وهكذا القرآن فانه قرر ما في الكتب
المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر وزاد ذلك بياناً وتفصيلاً وبين الادلة
والبراهين على ذلك وقرر نبوة الانبياء كلهم ورسالة المرسلين وقرر الشرائع الكلية

التي بعثت بها الرسل كلهم وجادل المكذبين بالكتب والرسل بانواع الحجج
والبراهين وبين عقوبات الله لهم ونصره لاهل الكتب المتبعين لها وبين ماحرف
منها وبدل وما فعله اهل الكتاب في الكتب المتقدمة وبين ايضا ما كتموه مما
امر الله ببيانه وكل ماجاءت به النبوات باحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن
فصارت له الهيمنة على ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة فهو شاهد بصدقها
وشاهد بكذب ماحرف منها وهو حاكم باقرار ما اقره الله ونسخ مانسخه فهو شاهد
في الخبريات حاكم في الامريات (وكذلك) معني الشهادة والحكم يتضمن أثبات
ما اثبته الله من صدق ومحكم وابطال ما ابطله من كذب ومنسوخ (وليس) الانجيل
مع التوراة ولا الزبور بهذه المثابة بل هي متبعة لشريعة التوراة الا يسيرا نسخه الله
بالانجيل بخلاف القرآن (ثم) انه معجز في نفسه لايقدر الخلائق ان يأتوا بمثله ففيه
دعوة الرسول وهو آية الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته وفيه ماجاء به الرسول وهو
نفسه برهان على ماجاء به وفيه ايضا من ضرب الامثال وبيان الآيات على تفضيل
ما جاء به الرسول مالو جمع اليه علوم جميع العلماء لم يكن ماعندهم الا بعض مافي
القرآن (ومن) تأمل ما تكلم به الأولون والآخرون في أصول الدين والعلوم
الالهية وأمور المعاد والنبوات والاخلاق والسياسات والعبادات وسائر ما فيه
كمال النفوس وصلاحها وسعادتها ونجاتها لم يجد عند الأولين والآخرين من أهل
النبوات ومن أهل الرأي كالمتفلسفة وغيرهم الا بعض ماجاء به القرآن ولهذا لم
تحتج الأمة مع رسولها وكتابها الى نبي آخر وكتاب آخر فضلا عن ان تحتاج
الى شئ لا يستقل بنفسه غيره سواء كان من علم المحدثين والملهمين أو الى علم أرباب
النظر والقياس الذين لا يعتصمون مع ذلك بكتاب منزل من السماء . ولهذا
قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح انه قد كان في الأمم قبلكم
محدثون فان يكن في أمتي أحد فعمر . فعلق ذلك تعليقاً في أمته مع جزمه به

فيمن تقدم لان الأمم قبلنا كانوا محتاجين الى المحدَّث كما كانوا محتاجين الى نبي بعد نبي (وأما) أمة محمد صلى الله عليه وسلم فاغناهم الله برسولهم وكتابهم عن كل ما سواه حتى ان المحدث منهم كعمر بن الخطاب رضى الله عنه انما يؤخذ منه ما وافق الكتاب والسنة واذا حدث شيئاً فى قلبه لم يكن له ان يقبله حتى يعرضه على الكتاب والسنة . وكذلك لا يقبله الا ان وافق الكتاب والسنة وهذا باب واسع فى فضائل القرآن على ما سواه

(والمقصود) ان نبين ان مثل هذا هو من العلم المستقر في نفوس الأئمة السابقين والتابعين ولم يعرف قط أحد من السلف رد مثل هذا ولا قال لا يكون كلام الله بعضه أشرف من بعض فانه كله من صفات الله ونحو ذلك انما حدث هذا الانكار لما ظهرت بدع الجهمية الذين اختلفوا في الكتاب وجعلوه عضين

(وممن) ذكر تفضيل بعض القرآن على بعض فى نفسه أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما كالشيخ أبي حامد الاسفرائيني والقاضي أبي الطيب وابي اسحق الشيرازي وغيرهم ومثل القاضى أبي يعلى والحلواني الكبير وابنه عبد الرحمن وابن عقيل قال ابو الوفاء ابن عقيل فى كتاب الواضح في أصول الفقه فى احتجاجه على ان القرآن لا ينسخ بالسنة قال فمن ذلك قوله (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) وليست السنة مثل القرآن ولا خيراً منه فبطل النسخ بها لانه يؤدي الى المحال وهو كون خبره بخلاف مخبره وذلك محال على الله فما أدى اليه فهو محال (قال) فان قيل أصل استدلالكم مبنيٌّ على ان المراد بالخير الفضل وليس المراد به ذلك وانما المراد نأت بخير منها لكم وذلك يرجع الى أحد أمرين فى حقنا إما سهولة فى التكليف فهو خير عاجل أو أكثر ثوابا لكونه أثقل واشق ويكون نفعاً في الآجل والعاقبة وكلاهما قد يتحقق بطريق السنة ويحتمل نأت بخير منها لا ناسخاً لها بل يكون تكليفاً مبتدأً هو خير لكم وان لم يكن طريقة القرآن الناسخ

ولا السنة الناسخة قالوا يوضح هذه التأويلات ان القرآن نفسه ليس بعضه خيرا من بعض فلا بد أن يصرفوا اللفظ عن ظاهره من خير يعود الى التكليف لا الى الطريق (وقال) في الجواب قولهم الخير يرجع الى ما يخصنا من سهولة أو ثواب لا يصح لانه لو أراد ذلك لقال لكم فلما حذف ذلك دل على ما يقتضيه الاطلاق وهو كون الناسخ خيرا من جهة نفسه وذاته ومن جهة الانتفاع به في العاجل والآجل على ان ظاهره يقتضي بآيات خير منها فان ذلك يعود الى الجنس كما اذا قال القائل ما آخذ منك ديناراً الا اعطيك خيراً منه لا يعقل بالاطلاق الا ديناراً خيراً منه فيتخير من الجنس أولا ثم النفع فاما ان يرجع ذلك الي ثوب أو عرض غير الدينار فلا وفي آخر الآية ما يشهد بانه أراد به القرآن لانه قال (ألم تعلم ان الله على كل شيء قدير) ووصفه لنفسه بالقدرة يدل على ان الذى يأتى به هو أمر يرجع اليه دون غيره وكذلك قوله أو مثلها يشهد لما ذكرناه لان المماثلة يقتضي اطلاقها من كل وجه لا سيما وقد انها تأنيث الآية فكأنه قال نأت بآية خير منها أو آية مثلها ﴿ قلت ﴾ وأيضا فلا يجوز أن يراد بالخير من جهة كونه أخف عملا أو أشق وأكثر ثوابا لان هذين الوصفين ثابتان لكل ما أمر الله به مبتدأ وناسخا فانه اما ان يكون أيسر من غيره في الدنيا واما أن يكون اشق فيكون ثوابه أكثر فاذا كانت هذه الصفة لازمة لجميع الاحكام لم يحسن أن يقال ما ننسخ من حكم نأت بخير منه أو مثله فان المنسوخ أيضا يكون خيراً ومثلا بهذا الاعتبار فانهم ان فسروا الخير بكونه أسهل فقد يكون المنسوخ أسهل فيكون خيراً وان فسروه بكونه أعظم أجراً لمشقته فقد يكون المنسوخ كذلك والله قد أخبر انه لابد ان يأتي بخير مما ينسخه أو مثله فلا يأتي بما هو دونه . وأيضاً فعلي ما قالوه لا يكون شيء خيراً من شيء بل ان كان خيراً من جهة السهولة فذلك خير من جهة كثرة الأجر (قال) ابن عقيل وأما قولهم إن القرآن في نفسه لا يتخاير ولا يتفاضل فعلم

انه لم يرد به الخير الذي هو الافضلية فليس كذلك فان توحيد الله الذى في سورة
الاخلاص وماضمنها من نفى التجزى والانقسام أفضل من تبت المتضمنة ذم أبي لهب
وذم زوجته ان شئت في كون المدح أفضل من القدح وان شئت في الاعجاز فان تلاوة
غيرها من الآيات التى تظهر منها الفصاحة والبيان أفضل وليس من حيث كان المتكلم
واحداً لايكون التفاضل لمعني يعود الي الكلام ثانياً كما ان المرسل واحد
لذى النون وابراهيم وابراهيم أفضل من ذي النون (قال) وأما قولهم نأت بخير منها
لايكون ناسخاً بل مبتدأ فلا يصح لانه خرج مخرج الجزاء مجزوما وهذا يعطي
البدلية والمقابلة مثل قولهم ان تكرمني أكرمك وان أطعتني أطعتك يقتضي ان
يكون الجزاء مقابلة وبدلا لا فعلا مبتدأ

﴿ قلت ﴾ المقصود هنا ذكر ما نصره من كون القرآن في نفسه بعضه خيرا
من بعض ليس المقصود الكلام في مسألة النسخ وكذلك غير هؤلاء صرحوا
بان بعض القرآن قديكون خيراً من بعض (وممن) ذكر ذلك ابو حامد الغزالى
في كتابه جواهر القرآن قال لعلك تقول قد توجه قصدك في هذه التنبيهات الى تفضيل
بعض آيات القرآن على بعض والكل كلام الله فكيف يفارق بعضها بعضا وكيف
يكون بعضها أشرف من بعض (فاعلم) ان نور البصيرة ان كان لايرشدك الى الفرق
بين آية الكرسي وآية المداينات وبين سورة الاخلاص وسورة تبت وترتاع من
اعتقاد الفرق نفسك الخوارة المستغرقة في التقليد فقلد صاحب الشرع صلوات الله
عليه وسلامه فهو الذي أنزل عليه القرآن وقال قلب القرآن يس (وقد) دلت الاخبار
على شرف بعضه على بعض فقال فاتحة الكتاب أفضل سور القرآن وقال آية الكرسي
سيدة آى القرآن وقال قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن والاخبار الواردة في فضائل
قوارع القرآن وتخصيص بعض السور والآيات بالفضل وكثرة الثواب في تلاوتها
لا يحصي فاطلبه من كتب الحديث ان أردت وننبهك الآن على معني هذه الاخبار

الأربعة في تفضيل هذه السور

﴿ قلت ﴾ وسنذكر ان شاء الله ماذكره في تفضيل قل هو الله أحد وممن
ذكر كلام الناس فى ذلك وحكى هذا القول عمن حكاه من السلف القاضي عياض
في شرح مسلم (قال) فى قول النبي صلى الله عليه وسلم لأُبي أتدرى أى آية من كتاب الله
أعظم وذكر آية الكرسي فيه حجة لتفضيل بعض القرآن على بعض وتفضيل القرآن
على سائر كتب الله عند من اختاره منهم اسحق بن راهويه وغيره من العلماء والمتكلمين
(قال) وذلك راجع الى عظم أجر قارئي ذلك وجزيل ثوابه على بعضها أكثر من سائره
(قال) وهذا مما اختلف أهل العلم فيه فأبي ذلك الاشعري وابن الباقلاني وجماعة
من الفقهاء وأهل العلم لان مقتضى الافضل نقص المفضول عنه وكلام الله لا يتبعض
قالوا وما ورد من ذلك بقوله أفضل وأعظم لبعض الآى والسور فمعناه عظيم وفاضل
(قال) وقيل كانت آية الكرسى أعظم لانها جمعت أصول الاسماء والصفات من
الالهية والحياة والوحدانية والعلم والملك والقدرة والارادة وهذه السبعة قالوا
هى أصول الاسماء والصفات

﴿ قلت ﴾ المقصود ماذكره من كلام العلماء وأما قول القائل ان هذه السبعة
هي أصول الاسماء فهذه السبعة عند كثير من المتكلمين هى المعروفة بالعقل وما سواها
قالوا انما يعلم بالسمع (وهذا) امر يرجع الى طريق علمنا لا الى امر حقيقي ثابت
لها في نفس الامر فكيف والجمهور على أن ماسواها قديعلم بالعقل أيضا كالمحبة والرضا
والامر والنهى (ومذهب) ابن كلاب واكثر قدماء الصفاتية ان العلو من الصفات
العقلية وهو مذهب ابي العباس القلانسي والحارث المحاسبي ومذهب طوائف من
اهل الكلام والحديث والفقه وهو آخر قولى القاضي ابي يعلي وابى الحسن بن
الزاغوني وغيره ومذهب ابن كرام واصحابه وهو قول عامة أئمة الحديث والفقه
والتصوف وكذلك مافسره القاضى عياض من قول المفضلين ان المراد كثرة

الثواب (فهذا) لا ينازع فيه الاشعرى وابن الباقلاني فان الثواب مخلوق من
مخلوقات الله تعالى فلا ينازع أحد في أن بعضه أفضل من بعض وإنما النزاع في نفس
كلام الله الذي هو كلامه فحكايته النزاع يناقض ما فسر به قول المثبتة وقد بين مأخذ
الممتنعين عن التفضيل (منهم) من نفى التفاضل في الصفات مطلقا بناء على ان القديم
لا يتفاضل والقرآن من الصفات (ومنهم) من خص القرآن بأنه واحد على أصله
فلا يعقل فيه معنيان فضلا أن يعقل فيه فاضل ومفضول . وهذا أصل أبي الحسن
ومن وافقه كما سنبينه ان شاء الله تعالى (وهؤلاء) الذين ذكرنا أقوالهم فى أن
كلام الله يكون بعضه أفضل من بعض ليس فيهم أحد من القائلين بأن كلام
الله مخلوق كما يقول ذلك من يقول من أهل البدع كالجهمية . والمعتزلة بل كل
هؤلاء يقولون ان كلام الله غير مخلوق ولو تتبع ذكر من قال ذلك لكثروا
فان هذا قول جماهير المسلمين من السلف والخلف أهل السنة وأهل البدعة . أما
السلف كالصحابة والتابعين لهم باحسان فلم يعرف عنهم في هذا الأصل تنازع بل
الآثار متواترة عنهم به . واشتهر القول بانكار تفاضله بعد المائتين لما أظهرت الجهمية
القول بأن القرآن مخلوق . واتفق أئمة السنة وجماهير الأمة على انكار ذلك ورده
عليهم . وظنت طائفة كثيرة مثل أبي محمد بن كلاب ومن وافقه ان هذا القول
لا يمكن رده الا إذا قيل ان الله لم يتكلم بمشيئته وقدرته ولا كلم موسى حين أتاه
ولا قال للملائكة اسجدوا لآدم بعد أن خلقه ولا يغضب على أحد بعد أن يكفر
به ولا يرضى عنه بعد أن يطيعه ولا يحبه بعد أن يتقرب اليه بالنوافل ولا يتكلم
بكلام بعد كلام فتكون كلماته لا نهاية لها الى غير ذلك مما ظنوا انتفاءه عن الله .
وقالوا انما يمكن مخالفة هؤلاء اذا قيل بأن القرآن وغيره من الكلام لازم لذات
الله تعالى لم يزل ولا يزال يتكلم بكل كلام له كقوله يا آدم يا نوح . وصاروا
طائفتين طائفة تقول انه معنى واحد قائم بذاته وطائفة تقول انه حروف أو حروف

وأصوات مقترن بعضها ببعض ازلا وأبداً وان كانت مترتبة فى ذاتها ترتباً ذاتيا
لا ترتبا وجوديا كما قد بين مقالات الناس في كلام الله في غير هذا الموضع .
والأولون عندهم كلام الله شئ واحد لا بعض له فضلا عن أن يقال بعضه أفضل
من بعض . والآخرون يقولون هو قديم لازم لذاته والقديم لا يتفاضل وربما
نقل عن بعض السلف في قوله نأت بخير منها انه قال خير لكم منها أو أنفع لكم
فيظن الظان ان ذلك القائل موافق لهؤلاء وليس كذلك بل مقصوده بيان وجه
كونه خيراً وهو أن يكون أنفع للعباد فان ما كان أكثر من الكلام نفعا للعباد
كان في نفسه أفضل كما بين في موضعه وصار من سلك مسلك الكلابية من
متأخرى أصحاب أحمد ومالك والشافعى وغيرهم يظنون أن القول بتفاضل كلام
الله بعضه على بعض انما يمكن على قول المعتزلة ونحوهم الذين يقولون انه مخلوق
فان القائلين بأنه مخلوق يكون فضل بعضه على بعض فضل مخلوق على مخلوق .
وتفضيل بعض المخلوقات على بعض لا ينكره أحد . فاذا ظن أولئك أن القول
بتفضيل بعض كلام الله على بعض مستلزم لكون القرآن مخلوقا فروا من
ذلك وانكروا القول به لأجل ما ظنوه من التلازم وليس الامر كما ظنوه
بل سلف الأمة وجمهورها يقولون ان القرآن كلام الله غير مخلوق وكذلك
سائر كلام الله غير مخلوق . ويقولون مع ذلك ان كلام الله بعضه أفضل
من بعض كما نطق بذلك الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين من غير
خلاف يعرف في ذلك عنهم ، وحدثنا أبي عن جدنا أبي البركات وصاحبه
أبي عبد الله بن عبد الوهاب انهما نظرا فيما ذكره بعض المفسرين من الأقوال
في قوله نأت بخير منها أو مثلها . وأظنه كان نظرهم في تفسير أبي عبد الله محمد
ابن تيمية . فلما رأيا تلك الأقوال قالا هذا إنما يجيء على قول المعتزلة (وزار مرة)
أبو عبد الله بن عبد الوهاب هذا لشيخنا أبي زكرياء بن الصيرفي وكان مريضا

فدعا أبو زكرياء بدعاء مأثور عن الامام أحمد يقول فيه أسالك بقدرتك التي قدرت
بها أن تقول للسموات والارض إئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين أن تفعل
بنا كذا وكذا. فلما خرج الناس من عنده قال له ماهذا الدعاء الذى دعوت به هذا
إنما يجيء على قول المعتزلة الذين يقولون القرآن مخلوق ، فأما أهل السنة فلا
يقال عندهم قدر أن يتكلم او يقول فان كلامه قديم لازم لذاته لا يتعلق بمشيئته
وقدرته . وكان أبو عبدالله بن عبد الوهاب رحمه الله قد تلقى هذا عن البحوث التى
يذكرها أبو الحسن بن الزاغونى وامثاله وقبله ابو الوفا بن عقيل وامثاله وقبلهما القاضي
ابو يعلى ونحوه فان هؤلاء وامثالهم من اصحاب مالك والشافعى كأبي الوليد الباجي وأبي
المعالى الجويني وطائفة من أصحاب أبي حنيفة يوافقون بن كلاب على قوله ان الله
لا يتكلم بمشيئته وقدرته وعلى قوله ان القرآن لازم لذات الله بل يظنون ان هذا
قول السلف قول أحمد بن حنبل ومالك والشافعي وسائر السلف الذين يقولون
القرآن غير مخلوق حتى ان من سلك مسلك السالمية من هؤلاء كالقاضى وابن عقيل
وابن الزاغوني يصرحون بأن مذهب احمد ان القرآن قديم وانه حروف واصوات
وأحمد بن حنبل وغيره من الأئمة الاربعة لم يقولوا هذا قط ولا ناظروا عليه
ولكنهم وغيرهم من اتباع الأئمة الاربعة لم يعرفوا أقوالهم في بعض المسائل ولكن
الذين ظنوا أن قول ابن كلاب واتباعه هو مذهب السلف من أن القرآن
غير مخلوق هم الذين صاروا يقولون ان فضل كلام الله بعضه أفضل انما يجيء على
قول أهل البدع الجهمية والمعتزلة كما صار يقول ذلك طوائف من اتباع الأئمة
كما سنذكره من أقوال بعض أصحاب مالك والشافعي ولم يعلموا أن السلف لم يقل
أحد منهم بهذا بل أنكروا على ابن كلاب هذا الأصل وأمر أحمد بن حنبل
وغيره بهجر الكلابية على هذا الأصل حتى هجر الحارث المحاسبي لانه كان صاحب
ابن كلاب وكان قد وافقه على هذا الأصل ثم روى عنه إنه رجع عن ذلك وكان

أحمد يحذر عن الكلابية وكان قد وقع بين أبي بكر بن خزيمة الملقب بإمام الأئمة
وبين بعض أصحابه مشاجرة على هذا الأصل لانهم كانوا يقولون بقول ابن
كلاب وقد ذكر قصتهم الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في تاريخ نيسابور
وبسط الكلام على هذا الاصل له موضع آخر وإنما نبهنا على المآخذ التي تعرف
بها حقائق الأقوال

(فصل) وفى الجملة فدلالة النصوص النبوية والآثار السلفية والأحكام
الشرعية والحجج العقلية على ان كلام الله بعضه أفضل من بعض هو من
الدلالات الظاهرة المشهورة. وأيضاً فان القرآن وان كان كله كلام الله ، وكذلك
التوراة والانجيل والأحاديث الالهية التى يحكيها الرسول عن الله تبارك وتعالى
كقوله ياعبادى انى حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا الحديث
وكقوله من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وأمثال ذلك هى وان اشتركت في
كونها كلام الله فمعلوم ان الكلام له نسبتان نسبة الى المتكلم به ونسبة الي المتكلم فيه
فهو يتفاضل باعتبار النسبتين وباعتبار نفسه أيضاً مثل الكلام الخبري له نسبتان
نسبة الى المتكلم المخبر ونسبة الى المخبر عنه المتكلم فيه فقل هو الله أحد وتبت يدا أبي
لهب كلاهما كلام الله وهما مشتركان من هذه الجهة . لكنهما متفاضلان من جهة
المتكلم فيه المخبر عنه . فهذه كلام الله وخبره الذي يخبر به عن نفسه وصفته التى
يصف بها نفسه وكلامه الذي يتكلم به عن نفسه . وهذه كلام الله الذي يتكلم
به عن بعض خلقه ويخبر به عنه ويصف به حاله وهما فى هذه الجهة متفاضلان
بحسب تفاضل المعنى المقصود بالكلامين . الا ترى أن المخلوق يتكلم بكلام هو كله
كلامه لكن كلامه الذي يذكر به ربه أعظم من كلامه الذى يذكر به بعض
المخلوقات والجميع كلامه فاشتراك الكلامين بالنسبة الى المتكلم لا يمنع تفاضلهما
بالنسبة الى المتكلم فيه سواء كانت النسبتان أو أحدهما توجب التفضيل أولا توجبه

فكلام الانبياء ثم العلماء والخطباء والشعراء بعضه أفضل من بعض وان كان المتكلم واحدا . وكذلك كلام الملائكة والجن وسواء أريد بالكلام المعاني فقط أو الالفاظ فقط أو كلاهما أو كل منهما فلا ريب في تفاضل الالفاظ والمعاني من المتكلم الواحد فدل ذلك على أن مجرد اتفاق الكلامين في أن المتكلم بهما واحد لا يوجب تماثلهما من سائر الجهات فتفاضل الكلام من جهة المتكلم فيه سواء كان خبراً أو انشاء أمر معلوم بالفطرة والشرعة فليس الخبر المتضمن للحمد لله والثناء عليه باسمائه الحسني كالخبر المتضمن لذكر أبي لهب وفرعون وابليس وان كان هذا كلاما عظيما معظما تكلم الله به وكذلك ليس الامر بالتوحيد والايمان بالله ورسوله وغير ذلك من أصول الدين الذى أمرت به الشرائع كلها وغير ذلك مما يتضمن الامر بالمأمورات العظيمة والنهى عن الشرك وقتل النفس والزنا ونحو ذلك مما حرمته الشرائع كلها وما يحصل معه فساد عظيم كالأمر بلعق الاصابع واماطة الاذى عن اللقمة الساقطة والنهى عن القران في التمر ولو كان الامران واجبين فليس الامر بالايمان بالله ورسوله كالامر باخذ الزينة عند كل مسجد والامر بالانفاق على الحامل وايتائها أجرها إذا ارضعت

(ولهذا) ذهب جمهور الفقهاء الى تفاضل أنواع الايجاب والتحريم وقالوا ان ايجاب أحد الفعلين قد يكون أبلغ من ايجاب الاخر وتحريمه اشد من تحريم الاخر فهذا أعظم ايجابا وهذا أعظم تحريما ولكن طائفة من أهل الكلام نازعوا في ذلك كابن عقيل وغيره فقالوا التفاضل ليس فى نفس الايجاب والتحريم لكن في متعلق ذلك وهو كثرة الثواب والعقاب والجمهور يقولون بل التفاضل فى الامرين والتفاضل في المسببات دليل على التفاضل في الاسباب وكون احد الفعلين ثوابه أعظم وعقابه أعظم دليل على أن الامر به والنهى عنه أوكد وكون احد الامرين والنهيين مخصوصاً بالتوكيد دون الثانى مما لا يستريب فيه عاقل ولو تساويا من كل وجه لامتنع الاختصاص

بتوكيد أو غيره من أسباب الترجيح فان التسوية والتفضيل متضادان وجمهور ائمة الفقهاء على التفاضل في الايجاب والتحريم واطلاق ذلك هو قول جماهير المتأخرين من اصحاب الائمة الاربعة وهو قول القاضي ابي يعلى وأبي الخطاب والقاضي يعقوب البرزيني وعبد الرحمن الحلواني وأبي الحسن بن الزاغوني وغيرهم لكن من هؤلاء من يفسر التفاضل بتفاضل الثواب والعقاب ونحو ذلك مما لا ينازع فيه النفاة والتحقيق ان نفس المحبة والرضا والبغض والارادة والكرامة والطلب والاقتضاء ونحو ذلك من المعانى تتفاضل وتتفاضل الألفاظ الدالة عليها . ونفس حب العباد لربهم يتفاضل كما قال تعالى (والذين آمنوا أشد حباً لله) . ونفس حب الله لهم يتفاضل أيضاً فان الخليلين ابراهيم ومحمد أحب اليه مما سواهما وبعض الأعمال احب الى الله من بعض والقول بان هذا الفعل أحب الى الله من هذا مشهور ومستفيض فى الآثار النبوية وكلام خير البرية . كقول بعض الصحابة لو علمنا أي الاعمال أحب الى الله لفعلناه . فانزل الله سورة الصف وهو مشهور ثابت رواه الترمذى وغيره وكون هذا أحب الى الله من هذا هو داخل فى تفضيل بعض الاعمال وبعض الاشخاص على بعض وبعض الامكنة والازمنة على بعض . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمكة والله انك لخير أرض الله وأحب أرض الله الى الله . ولولا ان قومي أخرجونى منك لما خرجت . قال الترمذى حديث حسن صحيح رواه من حديث عبد الله بن عدى بن الحمراء . وكذلك تفضيل حبه وبغضه على حب غيره وبغضه كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا أحد أحب اليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه . ولا أحد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين . وقال لا أحد أغير من الله وهذا في الصحيحين . وقال تعالى (لمقت الله أكبر من مقتكم انفسكم) الآية ومن المعلوم بالاضطرار تفاضل المأمورات فبعضها أفضل من بعض وبعض المنهيات شر من

بعض وحينئذ فطالب الافضل يكون فى نفسه أكمل من طالب المفضول والطالب اذا كان حكيما يكون طلبه لهذا أوكد (ففى الجملة) من المستقر فى فطر العقلاء ان كلا من الخبر والامر يلحقهما التفاضل من جهة المخبر عنه والمأمور به فاذا كان المخبر به اكمل وافضل كان الخبر به افضل واذا كان المأمور به افضل كان الامر به افضل ولهذا كان الخبر بما فيه نجاة النفوس من العذاب وحصول السعادة الابدية افضل من الخبر بما فيه نيل منزلة أو حصول دراهم والرؤيا التي تتضمن افضل الخبرين اعظم من الرؤيا التى تتضمن ادناهما وهذا امر مستقر فى فطر العقلاء قاطبة . (واذا) قدر اميران امر احدهما بعدل عام عمر به البلاد ودفع به الفساد كان هذا الامر اعظم من امر امير بعدل بين خصمين فى ميراث بعض الاموات .

وايضا فالخبر يتضمن العلم بالمخبر به والامر يتضمن طلباً وارادة للمأمور به وان لم يكن ذلك ارادة فعل الامر والله تعالى امر العباد بما امرهم به ولكن اعان اهل الطاعة فصار مريداً لان يخلق أفعالهم ولم يعن أهل المعصية فلم يردان يخلق أفعالهم فهذه الارادة الخلقية القدرية لا تستلزم الامر وأما الارادة بمعنى انه يجب فعل ما امر به ويرضاه اذا فعل ويريد من المأمور ان يفعله من حيث هو مأمور فهذه لا بد منها في الامر . ولهذا أثبت الله هذه الارادة فى الامر دون الاولي ولكن فى الناس من غلط فنفى الارادة مطلقا وكلا الفريقين لم يميز بين الارادة الخلقية والارادة الامرية (والقرآن) فرق بين الارادتين فقال فى الأولى (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا) وقال نوح (ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم) وقال (ولو شاء الله مااقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد) وقال (ولولا اذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة الا بالله) (ولهذا) قال المسلمون ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وقال في الثانية (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال (انما يريد الله

ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا) وقال (وما يريد الله ليجعل عليكم فى الدين من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) وقال (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد ان يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيما . يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا) وهذا مبسوط فى موضع آخر والمقصود هنا ان لا بد في الأمر من طلب واستدعاء واقتضاء سواء قيل أن هناك أرادة شرعية وانه لا إرادة للرب متعلقة بأفعال العباد سواها كما تقوله المعتزلة ونحوهم من القدرية أو قيل لا إرادة للرب الا الارادة الخلقية القدرية التى يقال فيها ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن وان ارادته عين نفس محبته ورضاه وان ارادته ومحبته ورضاه متعلقة بكل مايوجد من ايمان وكفر ولا تتعلق بما يوجد سواء كان ايمانا أو كفرا وانه ليس للعبد قدرة لها أثر فى وجود مقدوره وليس في المخلوقات قوى وأسباب يخلق بها ولا لله حكمة يخلق ويأمر لاجلها كما يقول هذ اوما يشبهه جهم بن صفوان رأس الجبرية هو ومن وافقه على ذلك أو بعضه من طوائف أهل الكلام وبعض متأخري الفقهاء وغيرهم المثبتين للقدر على هذه الطريقة لا على طريقة السلف والأئمة كأبى الحسن وغيره فان هؤلاء ناقضوا القدرية المعتزلة مناقضة الجأتهم الى انكار حقيقة الامر والنهى والوعد والوعيد وان كان من يقول ببعض ذلك يتناقض وقد يثبت احدهم من ذلك مالا حقيقه له في المعني (وأما) السلف وائمة الفقهاء وجمهور المسلمين فيثبتون الخلق والامر والارادة الخلقية القدرية الشاملة لكل حادث والارادة الامرية الشرعية المتناولة لكل مايحبه الله ويرضاه لعباده وهو ما أمرت به الرسل وهو ماينفع العباد ويصلحهم ويكون له العاقبة الحميدة النافعة فى المعاد الدافعة للفساد (فهذه) الارادة الامرية الشرعية متعلقة بآلهيته المتضمنة لربوبيته كما أن تلك الارادة الخلقية القدرية متعلقة بربوبيته (ولهذا) كان من نظر الى

هذه فقط وراعي هـذه الخليقة الكونية القدرية دون تلك يكون له بداية بلا
نهاية فيكون من الاخسرين اعمالا يحصل لهم بعض مطالبهم في الدنيا لاستعانتهم
بالله اذ شهدوا ربوبيته ولا خلاق لهم فى الآخرة اذ لم يعبدوا الله مخلصين له الدين
(وقد) وقع في هذا طوائف من أهل التصوف والكلام (ومن) نظر الي الحقيقة
الشرعية الامرية دون تلك فانه قد يكون له عاقبة حميدة وقد يراعي الامر لكنه
يكون عاجزا مخذولا حيث لم يشهد ربوبية الله وفقره اليه ليكون متوكلا عليه
بريا من الحول والقوة الا به (فهذا) قد يقصد ان يعبده ولا يقصد حقيقة
الاستعانة به وهى حال القدرية من المعتزلة ونحوهم الذين يقرون ان الله ليس خالق
أفعال العباد ولا مريدا للكائنات (ولهذا) قال أبو سليمان الداراني انما يعجب
بفعله القدرى لانه لا يري انه هو الخالق لفعله فاما أهل السنة الذين يقرون ان
الله خالق أفعالهم وان لله المنة عليهم في ذلك فكيف يعجبون بها أو كما قال (والاول)
قد يقصد أن يستعينه ويسأله ويتوكل عليه ويبرأ من الحول والقوة الا به ولكن
لا يقصد ان يعبده بفعل ما أمر به وترك مانهى عنه على السن رسله ولا يشهد أن
الله يحب أن يعبد ويطاع وانه يفرح بتوبة التائبين ويحب المتقين ويغضب على
الكفار والمنافقين بل ينسلخ من الدين أو بعضه لاسيما فى نهاية أمره وهذه الحال
إن طردها صاحبها كان شرا من حال المعتزلة القدرية بل إن طردها طردا حقيقيا
أخرجته من الدين خروج الشعرة من العجين وهي حال المشركين (وأما) من هداه
الله فانه يحقق قوله إياك نعبد وإياك نستعين ويعلم إن كل عمل لا يراد به وجه
الله ولا يوافق أمره فهو مردود على صاحبه وكل قاصد لم يعنه الله فهو مصدود
من مآربه فانه يشهد أن لا إله الا الله فيعبد الله مخلصا له الدين مستعينا بالله على
ذلك مؤمنا بخلقه وأمره بقدره وشرعه فيستعين الله على طاعته ويشكره عليها
ويعلم انها منة من الله عليه ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله ويعلم أن

ما أصابه من سيئة فمن نفسه مع علمه بان كل شئ بقضاء الله وقدره وان لله الحجة
البالغة على خلقه وان له في خلقه وأمره حكمة بالغة ورحمة سابغة . (وهذه) الامور
أصول عظيمة لبسطها موضع آخر . والمقصود هنا ان الخبر الصادق يتضمن جنس
العلم والاعتقاد والأمر يتضمن جنس الطلب باتفاق العقلاء ثم هل مدلول الخبر جنس
من المعانى غير جنس العلم ومدلول الأمر جنس من المعانى غير جنس الارادة كما يقول
ذلك طائفة من النظار مثل ابن كلاب ومن وافقه أو المدلول من جنس العلم والارادة
كما يقوله جمهور نظار أهل السنة الذين يثبتون الصفات والقدر فيقولون ان
القرآن كلام الله غير مخلوق ويقولون ان الله خالق أفعال العباد والمعتزلة وغيرهم ممن
يخالف أهل السنة فى هذين الاصلين فان هؤلاء يخالفون ابن كلاب ومن وافقه في
ذينك الاصلين (ولهذا) يقال إنه لم يوافقه أحد من الطوائف على ما أحدثه من القول
في الكلام والصفات وان كان قوله خيرا من قول المعتزلة والجهمية المحضة وأما جمهور
المسلمين من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية وطوائف النظار فلا يقولون بقول المعتزلة
ولا الكلابية كما ذكر ذلك فقهاء الطوائف من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي
وأحمد وغيرهم في أصول الفقه فضلا عن غيرها من الكتب والمقصود هنا أن الناس
متفقون على أن كلا من أنواع الخبر والأمر لها معان سواء سمى طلبا أو ارادة أو علما
أو حكما أو كلاما نفسانيا . وهذه المعاني تتفاضل في نفسها فليس علمنا بالله وأسمائه
كعلمنا بحال أبي لهب . وليس الطلب القائم بنا اذا أمرنا بالايمان بالله ورسوله كالطلب
القائم بنا اذا أمرنا برفع اليدين في الصلاة والاكل باليمين واخراج الدرهم من الزكاة
(فعلم) بذلك ان معاني الكلام قد تتفاضل في نفسها كما قد تتماثل وتبين بذلك ان ماتضمنه
الأمر والنهى من المعاني التي تدل عليها صيغة الامر سواء سميت طلبا أو اقتضاء
أو استدعاء أو ارادة أو محبة أو رضا أو غير ذلك فانها متفاضلة بحسب تفاضل المأمور
به (وما) تضمنه الخبر من أنواع العلوم والاعتقادات والاحكام النفسانية فهى متفاضلة

في نفسها بحسب تفاضل المخبر عنه (فهذا) نوع من تفاضل الكلام من جهة المتكلم فيه وان كان المتكلم به واحداً وهو أيضاً متفاضل من جهة المتكلم به وان كان المتكلم فيه واحداً أو المتكلم به واحداً كما قال تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء) ومعلوم ان تكليمه من وراء حجاب أفضل من تكليمه بالايحاء وبارسال رسول (ولهذا) كان من فضائل موسي عليه السلام ان الله كلمه تكليما وقال (اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) وقال (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات)

والذي يجد الناس من أنفسهم أن الشخص الواحد تتفاضل أحواله في أنواع الكلام بل وفي الكلام الواحد يتفاضل مايقوم بقلبه من المعاني ومايقوم بلسانه من الالفاظ بحيث قد يكون اذا كان طالباً هو أشد رغبة ومحبة وطلباً لاحد الأمرين منه للآخر ويكون صوته به أقوى ولفظه به أفصح وحاله في الطلب أقوى وأشد تأثيرا (ولهذا) يكون للكلمة الواحدة من الموعظة بل للآية الواحدة اذا سمعت من اثنين من ظهور التفاضل مالا يخفى على عاقل والأمر في ذلك أظهر واشهر من أن يحتاج الي تمثيل . وكذلك في الخبر قد يقوم بقلبه من المعرفة والعلم وتصور المعلوم وشهود القلب اياه باللسان من حسن التعبير عنه لفظاً وصوتا وما لا يقاربه مايقوم بالقلب واللسان اذا اخبر عن غيره (فهذا) نوع اشارة الى قول من يقول بتفضيل بعض كلام الله على بعض موافقا لمادل عليه الكتاب والسنة وكلام السلف والائمة (والطائفة الثانية) تقول ان كلام الله لا يفضل بعضه على بعض (ثم) لهؤلاء في تأويل النصوص الواردة في التفضيل قولان احدهما انه انما يقع التفاضل في متعلقه مثل كون بعضه أنفع للناس من بعض لكون الثواب عليه أكثر أو العمل به أخف مع التماثل في الأجر . وتأولوا قوله نأت بخير منها أي نأت بخير منها لكم لا انها في نفسها خير من تلك وهذا قول طائفة من المفسرين كمحمد بن جرير

الطبري . قال نأت بحكم خير لكم من حكم الآية المنسوخة اما في العاجل لخفته عليكم . واما في الآخرة كعظم ثوابه من اجل مشقة حمله . قال والمراد ما ننسخ من حكم آية كقوله واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم أي حبه قال ودل على ان ذلك كذلك قوله نأت بخير منها أو مثلها . وغير جائز ان يكون من القرآن شيء خير من شيء لان جميعه كلام الله ولا يجوز ان يقال في صفات الله تعالى بعضها افضل من بعض أو بعضها خير من بعض وطرد ذلك في اسماء الله فمنع ان يكون بعض اسمائه اعظم أو افضل أو أكبر من بعض . وقال معني الاسم الاعظم العظيم وكلها سواء في العظمة وانما يتفاضل حال الناس حين الدعاء فيكون الاعظم بحسب حال الدعاء لأنه في نفسه اعظم (وهذا) القول الذي قاله في اسماء الله نظير القول الثاني في تفضيل بعض كلام الله على بعض فان القول الثاني لمن منع تفضيله ان المراد بكون هذا أفضل أو خيرا كونه فاضلا في نفسه لانه أفضل من غيره وهذا القول يحكى عن ابي الحسن الاشعرى ومن وافقه قالوا ان معني ذلك انه عظيم فاضل وقالوا مقتضى الأفضل تقصير المفضول عنه وكلام الله لا يتبعض وهذا يقولونه في الكلام لانه واحد بالعين عندهم يمتنع فيه تماثل أو تفاضل واما في الصفات بعضها على بعض فلامتناع التغاير ولا يقولون هذا في القرآن العربي فان القرآن العربي عندهم مخلوق وليس هو كلام الله على قول الجمهور منهم قالوا لان الكلام يمتنع قيامه بغير المتكلم كسائر الصفات والقرآن العربي يمتنع عندهم قيامه بذات الله تعالي ولو جوزوا أن يكون كلام الله قائما بغيره لبطل اصلهم الذى اتفقوا عليه هم وسائر أهل السنة وردوا به على المعتزلة في قولهم ان القرآن مخلوق وهؤلاء يسلمون ان القرآن العربي بعضه أفضل من بعض لانه مخلوق عندهم ولكن ليس هو كلام الله عند جماهيرهم (وبعض) متأخريهم يقول ان لفظ كلام الله يقع بالاشتراك على المعني القائم بالنفس وعلى الكلام العربي المخلوق الدال عليه وان كلام الله الذي ليس بمخلوق عندهم فهو ذلك المعنى وهو

الذي يمتنع تفاضله عندهم وأصل هؤلاء ان كلام الله هو المعاني بل هو المعني الواحد
فقط وإن معاني كتاب الله هى شئ واحد لا يتعدد ولا يتبعض فمعني آية الكرسي
وآية الدين والفاتحة وقل هو الله أحد وتبت ومعنى التوراة والانجيل وكل حديث
إلهى وكل ما يكلم به الرب عباده يوم القيمة وكل ما يكلم به الملائكة والانبياء انما
هى معني واحد بالعين لا بالنوع ولا يتعدد ولا يتبعض وان القرآن العربى ليس هو
كلام الله بل كلام غيره جبريل أو محمد أو مخلوق من مخلوقاته عبر به عن ذلك
الواحد وذلك الواحد هو الامر بكل ما أمر به والنهي عن كل مانهي عنه
والاخبار بكل ما أخبر به وان الامر والنهي والخبر ليست انواعا للكلام واقساما
له فان الواحد بالعين لا يقبل التنويع والتقسيم بخلاف الواحد بالنوع فانه يقبل
التنويع والتقسيم وانما هى صفات لذلك الواحد بالعين وهي صفات اضافية له فاذا
تعلق بما يطلب من أفعال العباد كان أمراً واذا تعلق بما ينهى عنه كان نهيا واذا تعلق بما
يخبر عنه كان خبرا (وجمهور) العقلاء يقولون فساد هذا معلوم بالاضطرار فانا نعلم أن
معانى قل هو الله أحد ليست هي معانى تبت يدا ابي لهب ولا معاني آية الدين معانى
آية الكرسي ولا معاني الخبر عن صفات الله هي معاني الخبر عن مخلوقات الله وان تعلق
ذلك المعني بالحقائق المخبر عنها والافعال التى تعلق بها الامر و النهى ان كان امراً
وجوديا فلا بد له من محل فان قام بذات الله فقد تعددت معانى الكلام القائمة بذاته
وان قام بذات غيره كان صفة لذلك الغير لا لله وان قام لا بمحل كان ممتنعا فان المعاني
لاتقوم بانفسها وان كان تعلق ذلك المعني بالحقائق أمرا عدميا لم يكن هناك مايميز
بين الخبر والامر والنهى بل لايميز بين الامر بالصلاة والامر بالزكاة والنهى عن
الكفر ولا يميز بين خبر الله عن نفسه وعن قوم نوح وعاد إذ كان المعني الواحد
لاتعدد فيه فضلا عن ان يمتاز بعضه عن بعض والحقائق المخبر عنها والمأمور بها
والمنهى عنها لاتكون بانفسها مخبرا بها ومأموراً بها ومنهيا عنها بل الخبر عنها والامر

بها والنهى عنها هو غير ذواتها فاذا لم يكن هنا أمر موجود غير ذلك المعني الذي
لا امتياز فيه ولا تعدد وغير المخلوقات التى لاتميز بين الامر والنهى والخبر لم يكن
هنا مايميز بين الامر والنهى والخبر ولا مايجعل معانى آية الوضوء غير معاني آية الدين
فان الحروف المخلوقة الدالة على ذلك المعني أن لم تدل إلا عليه فلا تعدد فيه ولا
تنويع وان دلت على التعلقات التى هي عدمية فالعدم ليس بشئ حتى يكون أمراً
ونهيا وخبراً وليس عند هؤلاء إلا ذلك المعنى وتعلقه بالحقائق المخبر عنها والمأمور
بها ونفس القرآن العربي المخلوق عندهم الدال على ذلك المعني فالمدلول ان كان
هو ذلك المعنى فلا تميز فيه أمر عن خبر ولا أمر بصلاة عن أمر بزكاة ولا نهى
عن الكفر عن أخبار بتوحيد وان كانت التعلقات عدمية فالمعدوم ليس بشئ
ولا يكون العدم أمراً ونهيا وخبراً ولا يكون مدلول التوراة والانجيل والقرآن
وسائر كتب الله أموراً عدمية لا وجود لها ولا تكون الامور العدمية هى التى بها
وجبت الصلاة وحرم الظلم ولا يكون المعني الواحد بتلك الامور العدمية الا صفات
أضافية وهي من معني السلبية فانها وان لم تكن سلب أمر موجود فهى تعلق ليس
بموجود فحقيقة الأمر على قول هؤلاء انه ليس لله كلام لا معان ولا حروف الا
بمعني واحد لا حقيقة له موجودة ولا معلومة

(ومن حجة) هؤلاء انه اذا قيل بعضه أفضل من بعض كان المفضول ناقصا
عن الفاضل وصفات الله كلها كاملة لا نقص فيها والقرآن من صفاته قال هؤلاء
صفات الله كلها متوافرة في الكمال متناهية إلى غاية التمام لا يلحق شيئا منها نقص
بحال . (ثم) لما اعتقد هؤلاء ان التفاضل في صفات الله ممتنع ظنوا أن القول
بتفضيل بعض كلامه على بعض لا يمكن الا على قول الجهمية من المعتزلة وغيرهم
القائلين بانه مخلوق فانه اذا قيل انه مخلوق أمكن القول بتفضيل بعض المخلوقات
على بعض فيجوز أن يكون بعضه أفضل من بعض . قالوا وأما على قول أهل

السنة والجماعة الذين أجمعوا على أن القرآن كلام الله غير مخلوق فيمتنع ان يقع التفاضل في صفات الله القائمة بذاته . ولاجل هـذا الاعتقاد صار من يعتقده يذكر اجماع أهـل السنة على امتناع التفضيل فى القرآن كما قال أبو عبد الله بن الدراج فى مصنف صنفه في هذه المسألة (قال) اجمع أهل السنة على أن ماورد في الشرع مما ظاهره المفاضلة بين آي القرآن وسوره ليس المراد به تفضيل ذوات بعضها على بعض إذ هو كله كلام الله وصفة من صفاته بل هو كله لله فاضل كسائر صفاته الواجب لهـا نعت الـكمال . وهذا النقل للاجماع هو بحسب ماظنه لازما لاهل السنة فلما علم أنهم يقولون القرآن كلام الله ليس بمخلوق وظن هو أن المفاضلة انما تقع في المخلوقات لا فى الصفات قال ماقال . والا فلا ينقل عن أحد من السلف والائمة أنه أنكر فضل كلام الله بعضه على بعض لافي نفسه ولا في لوازمه ومتعلقاته فضلا عن أن يكون هذا إجماعا . وليس هو لازما لابن كلاب ومن وافقه كالاشعري واتباعه

فان هؤلاء يجوزون وقوع المفاضلة في القرآن العربي وهو مخلوق عندهم . وهذا المخلوق يسمي كتاب الله والمعني القديم يسمي كلام الله . ولفظ القرآن يراد به عندهم ذلك المعني القديم . والقرآن العربى المخلوق . وحينئذفهم يتأولون ماورد من تفضيل بعض القرآن على بعض على القرآن المخلوق عندهم . وإنما القول المتواتر عن أئمة السلف أنهم قالوا القرآن كلام الله غير مخلوق . وانهم أنكروا مقالة الجهمية الذين جعلوا القرآن مخلوقا منفصلا عن الله بل كفروا من قال ذلك والـكتب الموجود فيها ألفاظهم بأسانيدها وغير أسانيدها كثيرة مثل كتاب الرد على الجهمية للامام أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم، والرد على الجهمية لعبد الله بن محمد الجعفي شيخ البخاري ، والرد على الجهمية للحكم بن معبد الخزاعي وكتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل والسنة لحنبل ابن عم الامام أحمد والسنة

لابى داود السجستانى والسنة للأثرم والسنة لابي بكر الخلال والسنة والرد على أهل الاهواء لخشيش بن أصرم والرد على الجهمية لعثمان بن سعيد الدارمى ونقض عثمان بن سعيد على الجهمى الـكاذب العنيد فيما افترى على الله فى التوحيد وكتاب التوحيد لابن خزيمة والسنة للطبراني ولابى الشيخ الاصبهاني وشرح أصول السنة لابى القاسم اللالـكائى والابانه لابى عبد الله بن بطه وكتب أبى عبدالله بن مندة والسنة لابى ذر الهروى والاسماء والصفات للبيهقى والاصول لابي عمر الطلمنكي والفاروق لابى اسماعيل الانصارى والحجة لابي القاسم التيمى إلى غير ذلك من المصنفات التى يطول تعدادها التى يذكر مصنفوها العلماء الثقات مذاهب السلف بالاسانيد الثابتة عنهم بألفاظهم الـكثيرة المتواترة التى تعرف منها أقوالهم مع انه من حين محنة الجهمية لأهل السنة التي جرت فى زمن أحمد بن حنبل لما صبر فيها الامام أحمد وقام بأظهار السنة والصبر على محنة الجهمية حتى نصر الله الاسلام والسنة وأطفأ نار تلك الفتنة ظهر فى ديار الاسلام وانتشر بين الخاص والعام ان مذهب أهل السنة والحديث المتبعين للسلف من الصحابة والتابعين أن القرآن كلام الله غـير مخلوق وان الذين أحدثوا في الاسلام القول بان القرآن مخلوق هم الجعد بن درهم والجهم بن صفوان ومن اتبعه من المعتزلة وغيرهم من أصناف الجهمية لم يقل هذا القول أحد من الصحابة ولا التابعين لهم باحسان (فهذا) القول هو القول المعروف عن أهل السنة والجماعة وهو القول بأن القرآن كلام الله وهو غير مخلوق (أما) كونه لايفضل بعضه على بعض فهذا القول لم ينقل عن أحد من سلف الأمة وأئمة السنة الذين كانوا أئمة المحنة كاحمد بن حنبل وأمثاله ولا عن أحد قبلهم ولو قدر أنه نقل عن عدد من أئمة السنة لم يجز ان يجعل ذلك اجماعا منهم فكيف اذا لم ينقل عن أحد منهم وانما هذا نقل لما يظنه الناقل لازما لمذهبهم (فلما) كان من مذهب أهل السنة أن القرآن من صفات الله لا من مخلوقات الله وظن

هذا الناقل أن التفاضل يمتنع في صفات الخالق نقل امتناع التفاضل عنهم بناء على
هذا التلازم ولكن يقال له أما المقدمة الاولى فمنقولة عنهم بلا ريب
وأما المقدمة الثانية وهي أن صفات الرب لاتفاضل فهل يمكنك أن تنقل
عن أحد من السلف قولا بذلك فضلا عن أن تنقل إجماعهم على ذلك وماعلمت
أحداً يمكنه أن يثبت عن أحد من السلف انه قال مايدل على هذا المعنى لابهذا
اللفظ ولا بغيره فضلا عن أن يكون هذا إجماعا ولكن ان كان قال قائل ذلك ولم
يبلغنا قوله فالله أعلم (لكن) الذى أقطع به ويقطع به كل من له خبرة بكلام
السلف ان القول بهذا لم يكن مشهورا بين السلف ولا قاله واحد واشتهر قوله عند
الباقين فسكتوا عنه ولا هو معروف في الكتب التى نقل فيها ألفاظهم بأعيانها
بل المنقول الثابت عنهم أوعن كثير منهم يدل على أنهم كانوا يرون تفاضل صفات
الله تعالى وهكذا من قال من أصحاب مالك أو الشافعى أو أحمد عن أهل السنة
أن القرآن لايفضل بعضه عن بعض فانما مستندهم أن أهل السنة متفقون على ان
القرآن كلام الله غير مخلوق وان كلامه من صفاته القائمة بنفسه ليس من مخلوقاته
وهذا أيضاً صحيح عن أهل السنة ثم ظنوا أن التفاضل انما يقع فى المخلوق لافي
الصفات وهذا الظن لم ينقلوه عن أحد من أئمة الاسلام كمالك والشافعى وأحمد
وأبي حنيفة والثورى والأوزاعي ولا من قبل هؤلاء ولهذا شنع هؤلاء على من
ظن فضل بعضه على بعض كما دلت عليه النصوص والآثار لظنهم ان ذلك مستلزم
خلاف مذهب أهل السنة كما قال ابو عبد الله بن المرابط في الكلام على حديث
البخاري في رده لتأويل من تأول هذا الحديث على ان هذه السورة اذا عدلت
بثلث القرآن انها تفضل الربع منه وخمسه ومادون الثلث فهو التفاضل فى كتاب
الله تعالى وهو صفة من صفات الله جل جلاله وقال فهذا لولا عذر الجهالة لحكم
على قائله بالكفر اذ لايصح التفاضل الا في المخلوقات اذ صفاته كلها فاضلة في

غاية الفضيلة ونهاية العلو والكرامة فمن تنقص شيئا منها عن سائرها فقد ألحد
فيها الاتسمعه منع ذلك بقوله تعالى (الذين جعلوا القرآن عضين) قال وقد اجمع اهل
السنة على ان القرآن صفة من صفات الله لامن صفة خلقه قال وانما أوقعهم في
تأويل ذلك قوله تعالى نأت بخير منها أومثلها ولا يخلو معنى ذلك من احد وجهين
اما ان تكون الناسخة خيراً من المنسوخة في ذاتها واما ان تكون خيراً منها لمن تعبد
بها اذ محال ان يتفاضل القرآن في ذاته على ماذهب اليه أهل السنة والاستقامة
اذ كل من عند الله لان القرآن العزيز صفة الله وأسماء الله وصفاته كلها متوافرة
في الكمال متناهية الى غاية التمام لايلحق شيئا منها نقص بحال فلما استحال أن
تكون آية خيراً من آية في ذاتها علمنا أن المراد بخير منها انما هو للمتعبدين بها
لم ينقل عباده من تخفيف الى تثقيل ولكنه نقلهم بالنسخ من تحريم الى تحليل ومن
ايجاب الى تخيير ومن تطهير الي تطهير والشاهد لنا قوله (يريد الله أن يخفف عنكم
وخلق الانسان ضعيفا) فيقال أما قول القائل لولا عذر الجهالة لحكم على مثبت
المفاضلة بالكفر فهم يقابلونه بمثل ذلك وحجتهم أقوي وذلك لان الكفر حكم
شرعي وانما يثبت بالادلة الشرعية ومن انكر شيئا لم يدل عليه الشرع بل علم
بمجرد العقل لم يكن كافراً وانما الكافر من أنكر ماجاء به الرسول ومعلوم أنه ليس
فى الكتاب والسنة نص يمنع تفضيل بعض كلام الله على بعض بل ولا يمنع
تفاضل صفاته تعالى بل ولا نقل هذا النفي عن أحد من الصحابة والتابعين لهم
باحسان ولا عن أئمة المسلمين الذين لهم لسان صدق فى الامة بحيث جعلوا اعلاما
للسنة وأئمة للأمة (وأما) تفضيل بعض كلام الله على بعض بل تفضيل بعض صفاته
على بعض فدلالة الكتاب والسنة والاحكام الشرعية والآثار السلفية كثيرة
على ذلك فلو قدر ان الحق فى نفس الامر انها لاتتفاضل لم يكن نفي تفاضلها معلوما الا
بالعقل لا بدليل شرعي واذا قدر انها تتفاضل فالدال على ذلك هو الادلة الشرعية مع

العقلية فاذا قدر ان الحق في نفس الامر هو التفضيل لكان كفر جاحد ذلك أولى من كفر من يثبت التفضيل اذا لم يكن حقاً في نفس الامر لأن ذلك جحد موجب الادلة الشرعية بغير دليل شرعي بل لما رآه بعقله وأخطأ فيه إذ نحن نتكلم في هذا التقدير (ومعلوم) أن من خالف ما جاءت به الرسل عن الله بمجرد عقله فهو أولى بالكفر ممن لم يخالف ما جاءت به الرسل عن الله وانما خالف ما علم بالعقل ان كان ذلك حقا . ونظير هذا قول بعض نفاة الصفات لما تأمل حال اصحابه وحال مثبتيها قال لا ريب ان حال هؤلاء عند الله خير من حالنا فان هؤلاء ان كانوا مصيبين فقد نالوا الدرجات العلى والرضوان الاكبر وان كانوا مخطئين فانهم يقولون نحن يارب صدقنا ما دل عليه كتابك وسنة رسولك اذ لم تبين لنا بالكتاب والسنة نفي الصفات كما دلّ كلامك على اثباتها فنحن أثبتنا ما دلّ عليه كلامك وكلام رسولك فان كان الحق في خلاف ذلك فلم يبين الرسول ما يخالف ذلك ولم يكن خلاف ذلك مما يعلم ببداية العقول بل ان قدر انه حق فلا يعلمه الا الافراد فكيف وعامة المنتهين في خلاف ذلك الى الغاية يقرون بالحيرة والارتياب (قال النافي) وان كنا نحن مصيبين فانه يقال لنا أنتم قلتم شيئا لم آمركم بقوله وطلبتم علما لم آمركم بطلبه فالثواب انما يكون لأهل الطاعة وأنتم لم تمتثلوا امرى قال وان كنا مخطئين فقد خسرنا خسرانا مبينا وهذا حال من أثبت المفاضلة في كلام الله وصفاته ومن نفاها فان المثبت معتصم بالكتاب والسنة والآثار ومعه من المعقولات الصريحة التي تبين صحة قوله وفساد قول منازعه ما لا يتوجه اليها طعن صحيح . وأما النافي فليس معه آية من كتاب الله ولا حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا قول أحد من سلف الأمة وانما معه مجرد رأى يزعم ان عقله دل عليه ومنازعه يبين ان العقل انما دل على نقيضه وان خطأه معلوم بصريح المعقول . كما هو معلوم بصحيح المنقول . واحتجاج المحتج على نفي التفاضل بقوله جعلوا القرآن عضين

في غاية الفساد فان الآية لا تدل على هذا بوجه من الوجوه سواء أريد بها من آمن ببعضه وكفر ببعضه أو اريد بها من عضهه فقال هو سحر وشعر ونحو ذلك بل من نفى فضل قل هو الله أحد على تبت يدا أبي لهب فهو أولى بان يكون ممن جعله عضين ان دلت الآية على هذه المسألة . وذلك أن من آمن بما وصف الله به كلامه فاقر بانه جميعه كلام الله وأقر به كله فلم يكفر بحرف منه وعلم أن كلام الله أفضل من كل كلام . وان خير الكلام كلام الله وانه لا أحسن من الله حديثا ولا أصدق منه قيلا . وأقر بما أخبر الله به ورسوله من فضل بعض كلامه كفضل فاتحة الكتاب وآية الكرسي وقل هو الله أحد ونحو ذلك بل وتفضيل يس وتبارك والآيتين من آخر سورة البقرة بل وتفضيل البقرة وآل عمران وغير ذلك من السور والآيات التي نطقت النصوص بفضلها وأقر بانه كلام الله ليس منه شيء كلاما لغيره لا معانيه ولا حروفه فهو أبعد عن جعله عضين ممن لم يؤمن بما فضل الله به بعضه على بعض بل آمن بفضله من جهة المتكلم ولم يؤمن بفضله من جهة المتكلم فيه فان هذا في الحقيقة آمن به من وجه دون وجه وكذلك من قال انه معني واحد وان القرآن العربي لم يتكلم الله به بل هو مخلوق خلقه الله في الهواء أو أحدثه جبريل أو محمد فهذا أولى بان يكون داخلا فيمن عضه القرآن ورماه بالافك وجعل القرآن العربي كلام مخلوق أما بشر وأما ملك وأما غيرهما فمن جعل القرآن كله كلام الله ليس بمخلوق ولا هو من إحداث مخلوق لا جبريل ولا محمد ولا شيء منه بل جبريل رسول ملك ومحمد رسول بشر والله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس فاصطفى لكلامه الرسول الملكي فنزل به على الرسول البشري الذي اصطفاه وقد أضافه الى كل من الرسولين لانه بلغه وأداه لا لأنه انشاه وابتداه قال تعالى (انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين) فهذا نعت جبريل الذي قال فيه (من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله)

وقال (نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين)
وقال (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم
لايعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق) وقال في الآية الأخرى (انه لقول
رسول كريم وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون
تنزيل من رب العالمين ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا
منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) فهذه صفة محمد صلى الله عليه وسلم
وأضاف القول الى كل منهما باسم الرسول فقال لقول رسول لان الرسول يدل
على المرسل فدل على انه قول رسول بلغه عن مرسل لم يقل انه لقول ملك ولا
بشر بل كفر من جعله قول بشر بقوله (ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالا
ممدوداً وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً ثم يطمع أن أزيد كلا انه كان لآياتنا عنيداً
سأرهقه صعوداً انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم
عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا الا سحر يؤثر إن هذا الا قول البشر)
فمن قال انه قول بشر أو قول مخلوق غير البشر فقد كفر ومن جعله قول رسول
من البشر فقد صدق لان الرسول ليس له فيه الا التبليغ والاداء كما قال تعالى
(يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك) وفي سنن أبي داود عن جابر بن عبد الله
ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول الا رجل
يحملني الي قومه لا بلغ كلام ربي فان قريشا قد منعوني ان أبلغ كلام ربي والذي
أتفق عليه السلف ان القرآن كلام الله غير مخلوق وقال غير واحد منهم منه بدا
واليه يعود قال أحمد بن حنبل وغيره منه بدأ أي هو المتكلم به لم يبتد من غيره
كما قالت الجهمية القائلون بان القرآن مخلوق قالوا خلقه في غيره فهو مبتدأ من
من ذلك المحل المخلوق ويلزمهم أن يكون كلاما لذلك المحل المخلوق لا لله تعالى
لا سيما والجهمية كلهم يقولون بان الله خالق أفعال العباد وهم غلاة في الجبر لكن

المعتزلة توافقهم على نفي الصفات والقول بخلق القرآن وتخالفهم في القدر والاسماء
والاحكام فاذا كان الله خالق كل ماسواه لزمهم ان يكون كل كلام كلامه لانه
هو الذي خلقه ولذلك قال ابن عربي الطائي وكان من غلاة هؤلاء الجهمية يقول
بوحدة الوجود قال

وكل كلام في الوجود كلامه   سواء علينا نثره ونظامه

ولهذا قال سليمان بن داود الهاشمي نظير أحمد بن حنبل الذي قال الشافعي
مارأيت اعقل من رجلين احمد بن حنبل وسليمان بن داود الهاشمي قال من قال انى انا
الله لا إله الا انا مخلوق فهو كافر وان كان القرآن مخلوقا كما زعموا فلم صار فرعون
أولى بان يخلد في النار اذ قال انا ربكم الاعلى وزعموا ان هذا مخلوق ومعنى ذلك ان
قول فرعون انا ربكم الاعلى كلاما قائما بذات فرعون فان كان قوله اني أنا الله
لا اله الا أنا كلاما خلقه في الشجرة كانت الشجرة هي القائلة لذلك كما كان فرعون
هو القائل لذلك وحينئذ فيكون جعل الشجرة إلها أعظم كفرا من جعل فرعون
إلها والجهمية والمعتزلة لم يقم عندهم بذات الله لا طلب ولا ارادة ولا محبة ولا رضى
ولا غضب ولا غير ذلك مما يجعل مدلول الأصوات المخلوقة ولا قام بذاته عندهم
ايجاب والزام ولا تحريم وحظر فلم يكن للكلام المخلوق في غيره معنى قائم بذاته
يدل عليه ذلك المخلوق حتى يفرق بين ماخلقه في الجماد وما خلقه في الحيوان
وكان مقصود السلف رضوان الله عليهم ان الله هو المتكلم بالقرآن وسائر كلامه
وانه منه نزل لم ينزل من غيره كما قال تعالى (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه
منزل من ربك بالحق) وقال تعالى (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) لم
يقل أحد من السلف ان القرآن قديم وانما قالوا هو كلام الله غير مخلوق وقالوا
لم يزل الله متكلما اذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وكما شاء ولا قال أحد منهم ان
الله في الازل نادي موسي ولا قال ان الله لم يزل ولا يزال يقول ياآدم يانوح

ياموسي ياابليس ونحو ذلك مما أخبر انه قال (ولكن) طائفة ممن اتبع السلف
اعتقدوا انه اذا كان غير مخلوق فلا بد أن يكون قديما إذ ليس عندهم الا هذا
وهذا وهؤلاء ينكرون ان يكون الله يتكلم بمشيئته وقدرته أو يغضب على الكفار
اذا عصوه أو يرضي عن المؤمنين اذا أطاعوه أو يفرح بتوبة التائبين اذا تابوا أو
يكون نادى موسى حين أتي الشجرة ونحو ذلك مما دل عليه الكتاب والسنة كقوله
(ذلك بانهم اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه فاحبط أعمالهم) وقوله تعالى (فلما
آسفونا انتقمنا منهم) وقوله (فلما اتاها نودى ياموسي) وقال تعالى (ولقد خلقنا كم
ثم صورنا كم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لادم) وقال تعالى (ان مثل عيسي عند الله
كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) (وقد) أخبر ان كلماته لانفاد لها
بقوله (لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو
جئنا بمثله مددا) وقال تعالى (ولو أن مافى الارض من شجرة أقلام والبحر
يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم) (واتباع)
السلف يقولون ان كلام الله قديم أى لم يزل متكلما اذا شاء لا يقولون ان
نفس الكلمة المعينة قديمة كندائه لموسي ونحو ذلك (لكن) هؤلاء اعتقدوا
ان القرآن وسائر كلام كلام الله قديم العين وان الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته
ثم اختلفوا فمنهم من قال القديم هو معني واحد هو جميع معاني التوراة والانجيل
والقرآن وان التوراة اذا عبر عنها بالعربية صارت قرآنا والقرآن اذا عبر عنه
بالعبرية صار توراة قالوا والقرآن العربى لم يتكلم الله به بل أما ان يكون خلقه
في بعض الاجسام وأما أن يكون أحدثه جبريل أو محمد فيكون كلاما
لذلك الرسول ترجم به عن المعنى الواحد القائم بذات الرب الذى هو جميع معاني
الكلام (ومنهم) من قال بل القرآن القديم هو حروف أو حروف وأصوات
وهي قديمة ازلية قائمة بذات الرب ازلا وأبداً وهى متعاقبة في ذاتها وماهيتها

لافي وجودها فان القديم لا يكون بعضه متقدما على بعض ففرقوا بين ذات
الكلام وبين وجوده وجعلوا التعاقب فى ذاته لافي وجوده كما يفرق بين
وجود الاشياء باعيانها وما هياتها من يقول بذلك من المعتزلة والمتفلسفة وكلا
الطائفين تقول انه اذا كلم موسى أو الملائكة أو العباد يوم القيامة . فانه لا يكلمه
بكلام يتكلم بمشيئته وقدرته حين يكلمه ولكن يخلق له ادرا كا يدرك به ذلك
الكلام القديم اللازم لذات الله أزلا وأبداً . (وعندهم) لم يزل ولا يزال يقول
(ياآدم اسكن أنت وزوجك) (ويانوح اهبط بسلام مناو بركات عليك) (ويا ابليس
مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدىّ) ونحو ذلك وقد بسط الكلام على هذه الاقوال
وغيرها في مواضع والمقصود أن هذين القولين لا يقدر أحد أن ينقل واحداً
منهما عن أحد من السلف أعني الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر أئمة المسلمين
المشهورين بالعلم والدين الذين لهم في الامة لسان صدق في زمن أحمد بن حنبل
ولا زمن الشافعى ولا زمن مالك ولا زمن أبى حنيفة ولا قبلهم وأول من أحدث
هذا الاصل هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب وعرف ان الحروف متعاقبة
فيمتنع أن تكون قديمة الاعيان فان المتأخر قد سبقه غيره والقديم لا يسبقه غيره
والصوت المعين لا يبقي زمانين فكيف يكون قديماً . فقال بأن القديم هو المعني
ثم جعل المعنى واحدا لا يتعدد ولا يتبعض لامتناع اختصاصه بعدد معين وامتناع
معان لا نهاية لها في آن واحد وجعل القرآن العربي ليس هو كلام الله . فلما شاع
قوله وعرف جمهور المسلمين فساده شرعا وعقلا (قالت) طائفة أخرى ممن
وافقته على مذهب السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق وعلى الاصل الذى
أحدثه من القول بقدم القرآن ان القرآن قديم وهو مع ذلك الحروف المتعاقبة
والاصوات المؤلفة فصار قول هؤلاء مركبا من قول المعتزلة وقول الكلابية
فاذا ناظروا المعتزلة على ان القرآن كلام الله غير مخلوق ناظروهم بطريقة ابن كلاب

واذا ناظرهم الكلابية على ان القرآن العربي كلام الله وان القرآن الذي يقرأه المسلمون كلام الله ناظروهم بحجج المعتزلة . وليس شيء من هذه الاقوال قول أحد من السلف كما بسط في غير هذا الموضع . ولا قال شيئاً من هذه الاقوال لا الائمة الاربعة ولا أصحابهم الذين أدركوهم وانما قاله ممن ينتسب اليهم بعض المتأخرين الذين تلقوها عمن قالها من أهل الكلام ولم يكن لهم خبرة لا باقوال السلف التي دل عليها الكتاب والسنة والعقل الصريح ولا بحقائق أقوال أهل الكلام الذي ذمه السلف لم قالوا هذا وما الذي ألجأهم الى هذا وقد شاع عند العامة والخاصة أن القرآن ليس بمخلوق والقول بانه مخلوق قول مبتدع مذموم عند السلف والائمة (فصار) من يطالع كتب الكلام التي لا يجد فيها الا قول المعتزلة وقول من رد عليهم وانتسب الى السنة يظن أن ليس في المسألة الا هذا القول وهذا وذاك قد عرف انه قول مذموم عند السلف فيظن القول الآخر قول السلف كما يقع مثل ذلك في كثير من المسائل في غير هذه لا يعرف الرجل في المسألة الا قولين أو ثلاثة فيظن الصواب واحداً منها ويكون فيها قول لم يبلغه وهو الصواب دون تلك . وهذا باب واسع في كثير من المسائل . والله يهدينا وسائر اخواننا المسلمين الى ما يحبه ويرضاه من القول والعمل ومن اجتهد يقصد طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده لم يكلفه الله ما يعجز عنه بل يثيبه الله على ما فعله من طاعته ويغفر ما أخطأ فيه فعجز عن معرفته .

(فصل) والنصوص والآثار في تفضيل كلام الله بل وتفضيل بعض صفاته على بعض متعددة وقول القائل صفات الله كلها فاضلة في غاية التمام والكمال ليس فيها نقص كلام صحيح لكن توهمه انه اذا كان بعضها أفضل من بعض كان المفضول معيبا منقوصاً خطأ منه فان النصوص تدل على ان بعض أسمائه أفضل من بعض ولهذا يقال دعا الله باسمه الاعظم وتدل على ان بعض صفاته أفضل من بعض وبعض

أفعاله أفضل من بعض ففي الآثار ذكر اسمه العظيم واسمه الاعظم واسمه الكبير والاكبر كما في السنن ورواه احمد وابن حبان في صحيحه عن ابن بريدة عن أبيه قال دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد فاذا رجل يصلي يدعو اللهم اني أسألك باني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد فقال النبي صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي اذا سئل به أعطى واذا دعي به أجاب (وعن) أنس قال كنت جالسا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحلقة ورجل قائم يصلي فلما ركع وسجد تشهد ودعا فقال في دعائه اللهم اني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والاكرام يا حي يا قيوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لقد دعا باسم الله الأعظم الذي اذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى (وقد) ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله كتب في كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش ان رحمتي تغلب غضبي وفي رواية سبقت رحمتي غضبي فوصف رحمته بانها تغلب وتسبق غضبه وهذا يدل على فضل رحمته على غضبه من جهة سبقها وغلبتها (وقد) ثبت في صحيح مسلم عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يقول في سجوده اللهم اني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك (وروى) الترمذي انه كان يقول ذلك في وتره لكن هذا فيه نظر (وقد) ثبت في الصحيح والسنن والمسانيد من غير وجه الاستعاذة بكلماته التامات كقوله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وان يحضرون (وفي) صحيح مسلم عن خولة انه قال صلى الله عليه وسلم من نزل منزلا فقال أعوذ بكلمات الله التامة لم يضره شيء حتى يرتحل منه (وفي الصحيح) انه قال لعثمان بن أبي العاص قل أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر ومعلوم ان المستعاذ به أفضل

من المستعاذ منه فقد استعاذ برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته وأما استعاذته به منه فلا بد أن يكون باعتبار جهتين يستعيذ به باعتبار تلك الجهة ومنه باعتبار تلك الجهة ليتغاير المستعاذ به والمستعاذ منه إذ كان المستعاذ منه مخوف مرهوب منه والمستعاذ به مدعوّ مستجار به ملتجأ اليه والجهة الواحدة لا تكون مطلوبة مهروباً منها لكن باعتبار جهتين تصح (كما في) الحديث الذي في الصحيحين عن البراء بن عازب ان النبي صلى الله عليه وسلم علم رجلا أن يقول عند النوم اللهم أسلمت نفسي اليك ووجهت وجهي اليك وألجأت ظهري اليك وفوضت أمري اليك رغبة ورهبة اليك لا منجا ولا ملجأ منك الا اليك آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت فبين انه لا ينجي منه إلا هو ولا يلتجأ منه إلا اليه واعمل الفعل الثاني لما تنازع الفعلان في العمل ومعلوم ان جهة كونه منجياً غير جهة كونه منجياً منه. وكذلك جهة كونه ملتجأ اليه غير كونه ملتجأ منه سواء قيل ان ذلك يتعلق بمفعولاته أو أفعاله القائمة به أو صفاته أو بذاته باعتبارين (وفي صحيح) مسلم عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا (وقد) جاء ذكر اليدين في عدة أحاديث ويذكر فيها ان كلتاهما يمين مع تفضيل اليمين. قال غير واحد من العلماء لما كانت صفات المخلوقين متضمنة للنقص فكانت يسار أحدهم ناقصة في القوة ناقصة في الفعل بحيث تفعل بمياسرها كل ما يذم كما يباشر بيده اليسرى النجاسات والاقذار بين النبي صلى الله عليه وسلم ان كلتا يمين الرب مباركة ليس فيها نقص ولا عيب بوجه من الوجوه كما في صفات المخلوقين مع ان اليمين أفضلهما (كما) في حديث آدم قال اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة فانه لا نقص في صفاته ولا ذم في أفعاله بل أفعاله كلها إما فضل وإما عدل وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة

سحاء الليل والنهار أريتم ما أنفق منذ خلق السموات والارض فانه لم يغض ما في يمينه والقسط بيده الاخرى يرفع ويخفض فبين صلى الله عليه وسلم ان الفضل بيده اليمنى والعدل بيده الاخرى ومعلوم انه مع ان كلتا يديه يمين فالفضل أعلى من العدل وهو سبحانه كل رحمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ورحمته أفضل من نقمته. ولهذا كان المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ولم يكونوا عن يده الاخرى. وجعلهم من يمين الرحمن تفضيل لهم كما فضل في القرآن أهل اليمين وأهل الميمنة على أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة وان كانوا إنما عذبهم بعدله وكذلك الاحاديث والآثار جاءت بأن أهل قبضة اليمين هم أهل السعادة وأهل القبضة الاخرى هم أهل الشقاوة

(ومما) يبين هذا ان الشر لم يرد في أسمائه وإنما ورد في مفعولاته ولم يضف اليه إلا على سبيل العموم وأضافه الى السبب المخلوق أو بحذف فاعله وذلك كقوله تعالى الله خالق كل شيء ومن شر ما خلق وكاسمائه المقترنة مثل المعطي المانع الضار النافع المعز المذل الخافض الرافع وكقوله (وإذا مرضت فهو يشفيني) وكقوله (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) وكقول الجن (وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الارض أم أراد بهم ربهم رشداً) (وقد) ثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يقول في دعاء الاستفتاح والخير بيديك والشر ليس اليك وسواء أريد به انه لا يضاف اليك ولا يتقرب به اليك أو قيل إن الشر اما عدم وإما من لوازم العدم وكلاهما ليس الى الله فهذا يبين انه سبحانه انما يضاف اليه الخير واسماؤه تدل على صفاته وذلك كله خير حسن جميل ليس فيه شر وانما وقع الشر في المخلوقات قال تعالى (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم) وقال تعالى (اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم) وقال تعالى (إن ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم) فجعل المغفرة او الرحمة من

معانى اسمائه الحسني التى يسمى بها نفسه فتكون المغفرة والرحمة من صفاته
وأما العقاب الذي يتصل بالعباد فهو مخلوق له وذلك هو الأليم فلم يقل واني أنا
المعذب ولا فى أسمائه الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم اسم المنتقم وانما جاء
المنتقم في القرآن مقيداً كقوله (إنامن المجرمين منتقمون) وجاء معناه مضافاً
الى الله في قوله (إن الله عزيز ذو انتقام) وهذه نكرة فى سياق الاثبات والنكرة
في سياق الأثبات مطلقة ليس فيها عموم على سبيل الجمع وذلك ان الله سبحانه
حكيم رحيم وقد أخبر انه لم يخلق المخلوقات الا بحكمته كما قال في قوله تعالي
(وما خلقنا السموات والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا) وقال تعالى
(ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب
الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات
والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا) وقال تعالي (وما خلقنا السموات والارض وما
بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين) وقال فى
السورة الأخري (ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون)

وهذا يبين ان معني قوله فى سائر الآيات بالحق هو لهذا المعني الذى
تتضمن حكمته كما قال (وهو الذى خلق السموات والارض بالحق ويوم يقول كن
فيكون) وقوله (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وان الساعة
آتية فاصفح الصفح الجميل ان ربك هو الخلاق العليم) وبعض الناس يظن ان
قوله هو الخلاق اشارة الى انه خالق أفعال العباد فلا ينبغى التشديد فى الانكار
عليهم بل يصفح عنهم الصفح الجميل لاجل القدر وهذا من أعظم الجهل فانه سبحانه
قد عاقب المخالفين له ولرسله وغضب عليهم وأمر بمعاقبتهم وأعد لهم من العذاب
ما ينافى قول هؤلاء المعطلين لأمره ونهيه ووعده ووعيده وقوله فاصفح الصفح
الجميل متعلق بما قبله وهو قوله (ان الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل) فان

لهم موعداً يجزون فيه كما قال تعالى في نظائر ذلك (فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب)
(فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب
الاكبر إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم) وقوله (فتول عنهم حتى حين) وقوله
(فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون) ولم يعذر الله أحداً قط بالقدر ولو عذره
به لكان أنبياؤه وأولياؤه أحق بذلك وآدم إنما حج موسي لأنه لامه على المصيبة
التى أصابت الذرية فقال له لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة وما أصاب العبد من
المصائب فعليه ان يسلم فيها لله ويعلم انها مقدرة عليه كما قال تعالي (ما أصاب من
مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال علقمة وقد روى عن ابن مسعود
هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم فالعبد مأمور بالتقوى
والصبر فالتقوى فعل ما أمر به ومن الصبر الصبر على ما أصابه وهذا هو صاحب
العاقبة المحمودة كما قال يوسف عليه السلام (انه من يتق ويصبر فان الله لايضيع
أجر المحسنين) وقال تعالى (وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور) وقال
(وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا) وقال (بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من
فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) ولا بد لكل عبد من
أن يقع منه ما يحتاج معه الى التوبة والاستغفار ويبتلى بما يحتاج معه الى الصبر
فلهذا يؤمر بالصبر والاستغفار كما قيل لأفضل الخلق (فاصبر ان وعد الله حق
واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشيّ والابكار) وقد بسط الكلام في غير
هذا الموضع على مناظرة آدم وموسى فان كثيراً من الناس حملوها على محامل
مخالفة للكتاب والسنة واجماع الامة ومنهم من كذب بالحديث لعدم فهمه له
والحديث حق يوجب ان الانسان اذا جرت عليه مصيبة بفعل غيره مثل أبيه
أو غير أبيه لا سيما اذا كان أبوه قد تاب منها فلم يبق عليه من جهة الله تبعة كما
جرى لآدم صلوات الله عليه قال تعالى (وعصي آدم ربه فغوي ثم اجتباه ربه فتاب

عليه وهدى) وقال (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) وكان آدم وموسى أعلم بالله
من أن يحتج أحدهما لذنبه بالقدر ويوافقه الآخر ولو كان كذلك لم يحتج آدم الى
توبة ولا أهبط من الجنة وموسي هو القائل (رب انى ظلمت نفسي فاغفر لى) وهو
القائل (رب اغفر لى ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين) وهو القائل
(أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين) وهو القائل لقومه (فتوبوا إلى
بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم) فلو كان المذنب يعذر بالقدر لم
يحتج الى هذا بل كان الاحتجاج بالقدر لما حصل من موسي ملام على ماقدر عليه
من المصيبة التى كتبها الله وقدرها

ومن الايمان بالقدر أن يعلم العبد ان ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم
يكن ليصيبه فالمؤمن يصبر على المصائب ويستغفر من الذنوب والمعائب والجاهل
الظالم يحتج بالقدر على ذنوبه وسيئاته ولا يَعذرُ بالقدر من أساء اليه ولا يذكر القدر
عند ما ييسره الله له من الخير فعكس القضية بل كان الواجب عليه اذا عمل حسنة
ان يعلم أنها نعمة من الله هو يسرها وتفضل بها فلا يعجب بها ولا يضيفها الى نفسه
كأنه الخالق لها واذا عمل سيئة استغفر وتاب منها واذا أصابته مصيبة سماوية
أو بفعل العباد يعلم انها كانت مقدرة مقضية عليه وهذا مبسوط في موضعه
(والمراد) هنا انه سبحانه بين انه انما خلق المخلوقات لحكمته وهذا معنى قوله
بالحق وقد ذم من ظن انه خلق ذلك باطلا وعبثا فقال (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا
وانكم الينا لا ترجعون) وقال (أيحسب الانسان أن يترك سدى) وقال (ان فى
خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الألباب الذين
يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض
ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار) فلا بد من جزاء العباد على
أعمالهم فلهذا قيل فاصفح الصفح الجميل ولله سبحانه في كل ما يخلقه حكمة يحبها

ويرضاها وهو سبحانه أحسن كل شيء خلقه واتقن كل ما صنع فما وقع من الشر
الموجود في المخلوقات فقد وجد لاجل تلك الحكمة المطلوبة المحبوبة المرضية
فهى من الله حسن جميل وهو سبحانه محمود عليه وله الحمد على كل حال وان كان
شراً بالنسبة الى بعض الاشخاص . وهذا موضوع عظيم قد بسط في غير هذا
الموضع فان الناس في باب خلق الرب وأمره ولِمَ فعل ذلك على طرفين ووسط
فالقدرية من المعتزلة وغيرهم قصدوا تعظيم الرب وتنزيهه عما ظنوه قبيحاً من
الافعال وظلما فانكروا عموم قدرته ومشيئته ولم يجعلوه خالقاً لكل شيء ولا انه
ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن بل قالوا يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء ثم انهم
وضعوا لربهم شريعة فيما يجب عليه ويحرم بالقياس على أنفسهم وتكلموا فى التعديل
والتجويز بهذا القياس الفاسد الذي شبهوا فيه الخالق بالمخلوق فضلوا وأضلوا
وقابلهم الجهمية الغلاة في الجبر فانكروا حكمة الله ورحمته وقالوا لم يخلق لحكمة
ولم يأمر بحكمة وليس في القرآن لام كى لا في خلقه ولا فى أمره وزعموا ان قوله
(وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً) (وخلق لكم ما فى الارض جميعا)
وقوله (ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي
الذين أحسنوا بالحسني) وقوله (ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم) وقوله
(لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وأمثال ذلك وإنما اللام فيه لام العاقبة
كقوله (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) وقول القائل لدوا للموت
وابنوا للخراب . ولم يعلموا ان لام العاقبة انما تصح ممن يكون جاهلا بعاقبة
فعله كفرعون الذى لم يكن يدرى ما ينتهي اليه أمر موسى أو ممن يكون عاجزا
عن رد عاقبة فعله كعجز بني آدم عن دفع الموت عن أنفسهم والخراب عن ديارهم
فاما من هو بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وهو مريد لكل ما خلق فيمتنع
فى حقه لام العاقبة التى تتضمن نفى العلم أو نفي القدرة

وأنكر هؤلاء محبة الله ورضاه لبعض الموجودات دون بعض . وقالوا
المحبة والرضا هو من معنى الارادة والله مريد لكل ما خلقه فهو راض بذلك
محب له . وزعموا ان ما في القرآن من نفي حبه ورضاه بالكفر والمعاصي كقوله
(والله لا يحب الفساد) (ولا يرضى لعباده الكفر) محمول على عباده الذين لم يقع ذلك
منهم أو انه لم يرده دينا يثيبهم عليه . وزعموا ان الله لا يحب ولا يرضى ما أمر به من
العبادات الا اذا وقع فيريده كما يريد حينئذ ما وقع من الكفر والمعاصي الى غير
ذلك من أقوالهم المبسوطة في غير هذا الموضع . وكثير من المتأخرين يظن ان هذا
قول أهل السنة وهذا مما لم يقله أحد من سلف الأمة وأئمتها بل جميع مثبتة القدر
المتقدمين كانوا يفرقون بين المحبة والرضا وبين الارادة . ولكن ابو الحسن
الاشعري اتبع جهما في ذلك .

قال أبو المعالي الجويني ومما اختلف أهل الحق في إطلاقه وعدم اطلاقه المحبة
والرضا فصار المتقدمون الى انه سبحانه لا يحب الكفر ولا يرضاه . وكذلك كل
معصية . وقال شيخنا أبو الحسن المحبة هي الارادة نفسها وكذلك الرضا والاصطفاء
وهو سبحانه يريد الكفر ويرضاه كفرا قبيحا معاقبا عليه وهو كما قال أبو المعالي
فان المتقدمين من جميع أهل السنة على ما دل عليه الكتاب والسنة من انه
سبحانه لا يرضى ما نهي عنه ولا يحبه وعلى ذلك قدماء أصحاب الأئمة الاربعة أصحاب
أبي حنيفة ومالك والشافعي واحمد كأبي بكر عبد العزيز وغيره من قدمائهم ولكن
من المتأخرين من سوى بين الجميع كما قاله ابو الحسن وهو في الأصل قول جهم
فهو الذي قال في القدر بالجبر وبما يخالف أهل السنة وأنكر رحمة الله تعالى وكان
يخرج الى الجذمى فيقول أرحم الراحمين يفعل هذا فنفى ان يكون الله أرحم
الراحمين وقد قال الصادق المصدوق لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها . وهذه
مسائل عظيمة ليس هذا موضع بسطها . وانما المقصود هنا التنبيه على الجمل

فان كثيرا من الناس يقرأ كتبا مصنفة في أصول الدين وأصول الفقه بل في
تفسير القرآن والحديث ولا يجد فيها القول الموافق للكتاب والسنة الذي عليه
سلف الامة وأئمتها وهو القول الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول بل يجد
أقوالا كل منها فيه نوع من الفساد والتناقض فيحار ما الذي يؤمن به في هذا
الباب وما الذي جاء به الرسول وما هو الحق والصدق اذ لم يجد في تلك الاقوال
ما يحصل به ذلك وانما الهدى فيما جاء به الرسول الذي قال الله فيه (وانك لتهدى
الى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض الا الى الله
تصير الامور)

(فصل) واذا علم ما دل عليه الشرع مع العقل واتفاق السلف من ان بعض القرآن
أفضل من بعض وكذلك بعض صفاته أفضل من بعض . بقي الكلام في كون
قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ماوجه ذلك وهل ثوابها بقدر ثواب ثلث
القرآن . واذا قدر ان الأمر كذلك فما وجه قراءة سائر القرآن (فيقال) أما
الاول فقد قيل فيه وجوه أحسنها والله أعلم الجواب المنقول عن الامام أبي العباس
ابن سريج فعن أبي الوليد القرشي انه سأل أبا العباس بن سريج عن معنى قول
النبي صلى الله عليه وسلم قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن (فقال) معناه أنزل
القرآن على ثلاثة أقسام ثلث منها الاحكام وثلث منها وعد ووعيد وثلث منها
الاسماء والصفات وهذه السورة جمعت الاسماء والصفات وقد ذكر أبو الفرج
ابن الجوزي في هذا الحديث ثلاثة أوجه بدأ بهذا الوجه فروي قول ابن سريج
هذا باسناده عن زاهد عن الصابوني والبيهقي عن الحاكم أبي عبد الله الحافظ
قال سمعت أبا الوليد حسان بن محمد الفقيه يقول سألت أبا العباس بن سريج
قلت ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن
قال ان القرآن أنزل على ثلاثة أقسام فثلث أحكام وثلث وعد ووعيد وثلث أسماء

وصفات وقد جمع في قل هو الله أحد . أحدَ الاثلاث وهو الصفات . فقيل
انها تعدل ثلث القرآن (الوجه الثاني) من الوجوه الثلاثة التي ذكرها أبو الفرج
ابن الجوزي ان معرفة الله هي معرفة ذاته ومعرفة أسمائه وصفاته ومعرفة أفعاله
فهذه السورة تشتمل على معرفة ذاته إذ لا يوجد شيء الا وجد من شيء ولا له
مثل (قال) أبو الفرج ذكره بعض فقهاء السلف قال (والوجه الثالث) ان المعنى
من عمل ما تضمنته من الاقرار بالتوحيد والاذعان للخالق كان كمن قرأ ثلث
القرآن ولم يعمل بما تضمنته ذكره ابن عقيل قال ابن عقيل ولا يجوز أن يكون المعنى
من قرأها فله أجر ثلث القرآن لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن
فله بكل حرف عشر حسنات ﴿ قلت ﴾ كلا الوجهين ضعيف . أما الاول فيدل
على ضعفه وجوه (الاول) ان نقول القرآن ليس كله هو المعرفة المذكورة بل فيه
أمر بالاعمال الواجبة ونهي عن المحرمات . والمطلوب من العباد المعرفة الواجبة
والعمل الواجب . والامة كلها متفقة على وجوب الاعمال التي فرضها الله لم يقل
أحد بانها ليست من الواجبات وان كان طائفة من الناس نازعوا في كون
الاعمال من الايمان فلم ينازعوا في ان الله فرض الصلوات الخمس وغيرها من
شرائع الاسلام (وحرم الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق
وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالا تعلمون) واذا كان
كذلك وقدر ان سورة من السور تضمنت ثلث المعرفة لم يكن هذا ثلث القرآن
﴿ الثاني ﴾ ان يقال قول القائل معرفة ذاته ومعرفة أسمائه وصفاته ومعرفة
أفعاله ان أراد بذلك ان ذاته تعرف بدون معرفة شيء من أسمائه وصفاته الثبوتية
والسلبية فهذا ممتنع ولو قدر امكان ذلك أو فرض العبد في نفسه ذاتا مجردة عن
جميع القيود السلبية والثبوتية فليس ذلك معرفته بالله البتة ولا هو رب العالمين ذات
مجردة عن كل أمر سلبي أو ثبوتي ولهذا لم يقل أحد من العقلاء هذا الا القرامطة

الباطنية يقولون يسلب عنه كل أمر ثبوتي وعدمي فلا يقال موجود ولا معدوم
ولا عالم ولا ليس بعالم ولا قادر ولا ليس بقادر ولا نحو ذلك . وهؤلاء مع ان
قولهم معلوم الفساد بضرورة العقل فانهم متناقضون . أما الاول فلان سلب
النقيضين ممتنع كما ان جمعهما ممتنع فيمتنع أن يكون شيء من الاشياء لا موجودا
ولا معدوما . واما تناقضهم لابد ان يذكروا ماذكروا انه يسلب عنه النقيضان
ببعض الامور التي تميز بها ليخبر عنه بهذا السلب وأي شيء قالوه فلابد ان يتضمن
نفيا أو اثباتا بل لابد ان يتضمن اثباتا . وقد بسطنا الرد عليهم في غير هذا الموضع
ولهذا كان كثير من الملاحدة لا يصلون الى هذا الحد بل يقولون كما قال أبو
يعقوب السجستاني وغيره من الملاحدة نحن لا ننفي النقيضين بل نسكت عن
اضافة واحد منهما اليه فلا نقول هو موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت ولا عالم
ولا جاهل . فيقال لهم إعراض قلوبكم عن العلم به وكف ألسنتكم عن ذكره
لا يوجب ان يكون هو في نفسه مجردا عن النقيضين بل يفيد هذا كفركم بالله
وكراهتكم لمعرفته وذكره وعبادته وهذا حقيقة مذهبكم . ومن قال من الملاحدة
المنتسبين الى التصوف والتحقيق كابن سبعين والصدر القونوي وغيرهما انه وجود
مطلق بشرط الاطلاق عن كل وصف ثبوتي وسلبي فهو من جنس هؤلاء .
لكن هؤلاء يقولون هو وجود مطلق فيخصونه بالوجود دون العدم . ثم
يقولون هو مطلق والمطلق بشرط الاطلاق عن كل قيد سلبي وثبوتي انما يكون
في الاذهان لا في الاعيان . وهؤلاء يقولون الوجود الكلي المقسوم الى واجب
وممكن الذي يجعله الفلاسفة موضوع العلم الالهي ويسمونه الحكمة العليا والفلسفة
الاولى انما يكون كليا في الاذهان لا في الاعيان فليس في الخارج قط وجود
هو بعينه واجب وهو بعينه ممكن ولا وجود هو نفسه يتصف به الواجب وهو
نفسه يتصف به الممكن بل صفة الواجب تختص به وصفة الممكن تختص به ووجود

الواجب يخصه لايشركه فيه غيره ووجود الممكن يخصه لايشركه فيه غيره ولهذا
كان كل ماوصف به الرب نفسه من صفاته فهي صفات مختصة به يمتنع ان يكون
له فيها مشارك أو مماثل فان ذاته المقدسة لاتماثل شيئاً من الذوات وصفاته مختصة
به فلا تماثل شيئاً من الصفات بل هو سبحانه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن
له كفوًا أحد فاسمه الاحد دل على نفي المشاركة والمماثلة واسمه الصمد دل على
انه مستحق لجميع صفات الكمال كما بسط الكلام على ذلك فى الشرح الكبير
المصنف فى تفسير هذه السورة وصفات التنزيه كلها بل وصفات الأثبات يجمعها
هذان المعنيان . وقد بسط الكلام في التوحيد وانه نوعان علمي قولي وعملي
قصدي فقل يا أيها الكافرون اشتملت على التوحيد العملي نصا وهي دالة على
العلمي لزوما وقل هو الله أحد اشتملت على التوحيد العلمى القولى نصاوهي دالة
على التوحيد العملى لزوما ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما في ركعتي
الفجر وركعتى الطواف وغير ذلك وقد ثبت انه كان يقرأ أيضاً في ركعتي الفجر
بآية الايمان التى في البقرة (قولوا آمنا بالله)في الركعة الاولى وآية الاسلام التى
فى آل عمران (قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لانعبد الا
الله ولا نشرك به شيئاًولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا
اشهدوا بانا مسلمون) (والمقصود) هنا ان صفات التنزيه يجمعها هذان المعنيان
المذكوران في هذه السورة أحدهما نفي النقائص عنه وذلك من لوازم أثبات صفات
الكمال فمن ثبت له الكمال التام انتفى النقصان والمضاد له والكمال من مدلول
اسمه الصمد والثاني انه ليس كمثله شيء فى صفات الكمال الثابتة وهذا من
مدلوله اسمه الاحد. فهذان الاسمان العظيمان الاحد الصمد يتضمنان تنزيهه عن كل
نقص وعيب وتنزيهه فى صفات الكمال ان يكون له مماثل في شيء منها. واسمه
الصمد يتضمن أثبات جميع صفات الكمال فتضمن ذلك أثبات جميع صفات الكمال

ونفي جميع صفات النقص فالسورة تضمنت كل مايجب نفيه عن الله وتضمنت
أيضا كل مايجب اثباته من وجهين من اسمه الصمد ومن جهة ان مانفي عنه من
الأصول والفروع والنظراء مستلزم ثبوت صفات الكمال أيضاً فان كل مايمدح
به الرب من النفي فلا بد أن يتضمن ثبوتاً بل وكذلك كل ما يمدح به شيء من
الموجودات من النفي فلا بد أن يتضمن ثبوتاً والا فالنفي المحض معناه عدم محض
والعدم المحض ليس بشيء فضلا عن أن يكون صفة كمال . وهذا كما يذكره
سبحانه في آية الكرسي مثل قوله (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة
ولا نوم) فنفى أخذ السنة والنوم له مستلزم لكمال حياته وقيوميته . فان النوم
ينافي القيومية والنوم أخو الموت ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون . ثم قال
(له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) فنفي الشفاعة
بدون اذنه مستلزم لكمال ملكه اذ كل من شفع اليه شافع بلااذنه فقبل شفاعته
كان منفعلا عن ذلك الشافع فقد أثرت شفاعته فيه فصيرته فاعلا بعد ان لم يكن
وكان ذلك الشافع شريكاللمشفوع اليه في ذلك الأمر المطلوب بالشفاعة اذ كانت
بدون اذنه لا سيما والمخلوق اذا شفع اليه بغير اذنه فقبل الشفاعة فانما يقبلها لرغبة
أو لرهبة إما من الشافع أو من غيره وإلا فلو كانت داعيته من تلقاء نفسه تامة
مع القدرة لم يحتج الى شفاعة والله تعالى منزه عن ذلك كله كما قال في الحديث
الالهى .ياعبادى انكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ولن تبلغوا ضري فتضروني .
ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بالشفاعة اليه فكان اذا أتاه طالب
حاجة يقول اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ماشاء أخرجاه في الصحيحين
وكان مقصوده أنهم يؤجرون على الشفاعة وهو انما يفعل ما أمره الله به .
(وكذلك) قوله (يعلم ما بين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون بشيء من علمه الابماشاء)
بين أنهم لا يعلمون من علمه إلا ما علمهم إياه كما قالت الملائكة لا علم لنا إلا ماعلمتنا

فكان في هذا النفي أثبات ان عباده لا يعلمون الا ما علمهم إياه . فاثبت انه الذي
علمهم لا ينالون العلم إلا منه . فانه (الذي خلق خلق الانسان من علق) و (علم
بالقلم علم الانسان مالم يعلم) ثم قال (وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما)
أي لا يكرثه ولا يثقله . وهذا النفي تضمن كمال قدرته فانه مع حفظه للسموات والارض
لا يثقل ذلك عليه كما يثقل على من في قوته ضعف . وهذا كقوله تعالى (ولقد خلقنا
السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب) فنزه نفسه عن
مس اللغوب . قال أهل اللغة اللغوب الاعياء والتعب . وكذلك قوله (لا تدركه الابصار)
الادراك عند السلف والاكثرين هو الاحاطة . وقال طائفة هو الرؤية وهو
ضعيف لأن نفي الرؤية عنه لا مدح فيه فان العدم لا يرى . وكل وصف يشترك
فيه الوجود والعدم لا يستلزم أمراً ثبوتياً فلا يكون فيه مدح إذ هو عدم محض
بخلاف ما إذا قيل لا يحاط به فانه يدل على عظمة الرب جل جلاله . وان العباد
مع رؤيتهم له لا يحيطون به رؤية . كما انهم مع معرفته لا يحيطون به علما . وكما انهم
مع مدحه والثناء عليه لا يحيطون ثناء عليه بل هو كما أثني على نفسه المقدسة .
ولهذا قال أفضل الخلق وأعلمهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .
وهذه الأمور مبسوطة فى موضع آخر

والمقصود هنا الكلام على معنى كون قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن وبيان
ان الصواب القول الأول (الوجه الثالث) الذى يدل على فساد القول الثاني ان
يقال قول القائل معرفة أفعاله إن أراد بذلك معرفة آياته الدالة عليه فهذه من تمام
معرفته ويبقى معرفة وعده ووعيده وقصص الأمم المؤمنة والكافرة لم يذكره وهو
القسم الثانى من أقسام معانى القرآن . كما لم يذكر أمره ونهيه . وان جعل هذه
من مفعولاته فمعلوم ان معرفة الوعد والوعيد والقصص المطلوب فيها الايمان باليوم
الآخر وجزاء الاعمال كان المطلوب بالأمر والنهي طاعته فانه لا بد من الايمان بالله

واليوم الآخر ومن العمل الصالح لكل أمة كما قال تعالى (ان الذين آمنوا والذين
هادوا والنصارى والصابئين من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم
عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (الوجه الرابع) أن يقال ما ذكره من
نفي المثل عنه ومن نفي الولادة مذكور فى غير هذه السورة فلم يختص بهذا المعنى
(الوجه الخامس) أن يقال هب أنها تضمنت التنزيه كما ذكره الله فمعرفة الله ليست
بمعرفة صفات السلب بل الاصل فيها صفات الاثبات والسلب تابع ومقصوده تكميل
الاثبات كما أشرنا اليه من أن كل تنزيه مدح به الرب ففيه اثبات ولهذا كان قول
سبحان الله متضمناً تنزيه الرب وتعظيمه ففيها تنزيهه من العيوب والنقائص وفيها
تعظيمه سبحانه وتعالى كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع (وأما القول الثالث)
وهو المراد به أن من عمل بما تضمنته كان كمن قرأ ثلث القرآن ولم يعمل بما تضمنته
فهذا أيضاً ضعيف وما نفاه من المعادلة فهو مبني على قول من اعتبر في مقدار الأجر
كثرة الحروف وهو قول باطل كما قد بين فى موضعه وذلك ان العمل بها ان أراد
به العمل الواجب من التصديق بمضمونها وتوحيد الله فهذا أجره أعظم من أجر
من قرأ القرآن جملة ولم يعمل بذلك فانه ان خلا عن الايمان بمضمون القرآن فهو منافق
وان خلا عما يجب عليه من العمل فهو فاسق ومعلوم ان هذا لو قرأ القرآن عشر
مرات لم يكن أجره مثل أجر المؤمن المتقي وأيضاً فان هذا الاجر على الايمان
بمضمونها سواء قرأها أو لم يقرأها ، والاجر المذكور في الحديث هو لمن قرأها
فلا بد أن يكون قد قرأها مع الايمان بما تضمنته، وأيضاً فالنبي صلى الله عليه وسلم
جعل قراءتها تعدل قراءة ثلث القرآن وقرأها على أصحابه وأخبرهم انه قرأ عليهم
ثلث القرآن فكانت قراءته لها تعدل قراءته هو للثلث ، وكذلك الرجل الذي جعل
يرددها وكذلك إخباره لهم بأنها تعدل ثلث القرآن انما يراد به ثلثه اذا قرؤه هم
لم يرد به الثلث اذا قرأها منافق لا يؤمن بمعني (قل هو الله أحد) ، ثم ان كون

المراد بذلك من قرأالثاث بلا ايمان بها معني ليس في اللفظ مايدل عايه، وانمايدل اللفظ على نقيضه وهذا التأويل وأمثاله هو من تحريف الكلم عن مواضعه الذى ذم الله عليه من فعل ذلك من أهل الكتاب. وهو نوع من الالحاد فى كلام الله ورسوله .

(وقد ذكر أبو حامد الغزالى وجها آخر) غير هذه الثلاثة فقال فى كتابه جواهر القرآن ودرره أما قوله قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن مااراك تفهم وجه ذلك فتارة تقول ذكر هذا للترغيب في التلاوة وليس المعني به التقدير. وحاشامنصب النبوة عن ذلك . وتارة تقول هذا بعيد عن الفهم والتأويل . فان آيات القرآن تزيد على ستة آلاف آية . فهذا القدر كيف يكون ثلثها . وهذا لقلة معرفتك بحقائق القرآن ونظرك الى ظاهر ألفاظه فتظن انها تعظم وتكثر بطول الالفاظ وتقصر بقصرها . وذلك كظن من يؤثر الدراهم الكثيرة على الجوهرة الواحدة نظراً الى كثرتها (فاعلم) ان سورة الاخلاص تعدل ثلث القرآن قطعاً وترجع الى الأقسام الثلاثة التي ذكرناها فى مهمات القرآن وهى معرفة الله ومعرفة الآخرة ومعرفة الصراط المستقيم. فهذه المعارف الثلاثة هى المهمة والباقي توابع وسورة الاخلاص تشتمل على واحدة من الثلاث وهي معرفة الله وتقديسه وتوحيده عن مشارك في الجنس والنوع وهو المراد بنفى الأصل والفرع والكفؤ (والوصف) بالصمد يشعر بانه السيد الذى لا يقصد في الوجود للحوائج سواه . نعم ليس فيها حديث الآخرة والصراط المستقيم فلذلك تعدل ثلث القرآن . أى ثلث الأصول من القرآن . كما قال الحج عرفة أى هو الأصل والباقى تبع

﴿قلت﴾ آيات القرآن نوعان علمية وعملية وفي الآيات مايجمع الأمرين وابو حامد جمع العلميات المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله دون ما يتعلق باليوم الآخر والقصص وسماها جواهر القرآن . وجمع العمليات وسماها درر القرآن.

وجعل الشطر الأول من الفاتحة من الجواهر . والثاني من الدرر. والآيات التى تجمع المعنيين يذكرها في أغلب النوعين عليها. ومجموع ما ذكره من القسمين ربع آيات القرآن نحو ألف وخمسمائة آية . وجعل معانى القرآن ستة أصناف ثلاثة أصول وثلاثة توابع فذكر أن القرآن هو البحر المحيط ومنه يتشعب علم الاولين والآخرين . (وقال) سر القرآن ولبابه الأصفي ومقصده الاقصى دعوة العباد الى الجبار الاعلى رب الآخرة والأولى وخالق السموات العلى والأرضين السفلى فالثلاثة المهمة تعريف المدعو اليه وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته فى السلوك اليه وتعريف الحال عند الوصول اليه (وأما) الثلاثة المغنية، فأحدها أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله فيهم وسره ومقصوده التشويق والترغيب وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الاجابة وكيفية قمع الله لهم وتنكيله بهم وسره ومقصوده الاعتبار والترهيب ، وثانيها حكاية أقوال الجاحدين وكشف فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحاجة على الحق ومقصوده وسره في جنبة الباطل الافصاح والتحذير والتنفير وفي جنبة الحق الايضاح والتثبيت والتقرير ، وثالثها تعريف عمارة منازل الطريق وكيفية أخذ الزاد والراحلة والأهبة للاستعداد

﴿قلت﴾ ماذكره من أن أصول الايمان ثلاثة فهو حق كما ذكره ولا بد من الثلاثة في كل ملة ودين كما قال الله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . ونحو ذلك فى سورة المائدة فذكر هذه الأصول الثلاثة الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح . وأما الثلاثة الأخر التابعة فهي داخلة في هذه الثلاثة . فان ما في القرآن من ذكر أحوال السعداء والاشقياء في الآخرة فهو من تفصيل الايمان باليوم الآخر . ومافيه من عمارة الطريق فهو من العمل الصالح . ومافيه من المجادلة والمحاجة فذلك من تمام

الاخبار بالثلاثة فانه اذا أخبر بالثلاثة ذكر الآيات والادلة المثبتة لذلك وذكر شبه الجاحدين وبين فسادها وقد ذكر أبو حامد ذلك فقال ﴿ القسم الجاثي ﴾ لمحاجة الكفار ومجادلتهم وايضاح مخازيهم بالبرهان الواضح وكشف أباطيلهم وتخاييلهم (وأباطيلهم ثلاثة أنواع) ذكر الله بما لا يليق به من أن الملائكة بناته وأن له ولداً شريكا وانه ثالث ثلاثة . الثاني ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بانه ساحر وكاهن وشاعر وانكار نبوته . وثالثها انكار اليوم الآخر وجحد البعث والنشور والجنة والنار وانكار عاقبة الطاعة والمعصية

(وأما) مافيه من الاخبار بأحوال المؤمنين والكفار في الدنيا وهو الذي أراده أبو حامد بذكر أحوال المستجيبين والناكبين فهذا من تمام الادلة والآيات فان هذا أمر شوهد في الدنيا ورؤيت آثاره وتواترت أخباره ليس هو مما بعد الموت الذي هو غيب عن العباد ولهذا يذكر سبحانه هذا في معرض الاحتجاج والاستدلال مع مافي ذلك من الموعظة كقوله (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) (قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) . وقوله (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار) وقوله (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وقوله (وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) وقوله (أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض

وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات) الآيات وقوله تعالى لما ذكر قصة قوم لوط (فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن في ذلك لآيات للمتوسمين وانها لبسبيل مقيم) والمتوسم المستدل بالسمة والسيما وهي العلامة قال تعالى (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول) فمعرفة المنافقين في لحن القول ثابتة مقسم عليها لكن هذا يكون اذا تكلموا وأما معرفتهم بالسيما فموقوف على مشيئة الله فان ذلك أخفى (وفي الحديث) الذي رواه الترمذي وحسنه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله ثم قرأ قوله تعالى (ان في ذلك لآيات للمتوسمين) قال مجاهد وابن قتيبة للمتفرسين قال ابن قتيبة يقال توسمت في فلان الخير أي تبينته وقال الزجاج المتوسمين في اللغة النظار المثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء يقال توسمت في فلان كذا أي عرفت وقوله المثبتون في نظرهم اي في نظر أعينهم حتى يعرفوا السيما بخلاف الذين قيل فيهم (وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) وقال الضحاك الناظرون وقال ابن زيد المتفقدون وقال قتادة المعتبرون وكل هذا صحيح فان المتوسم يجمع هذا كله ثم قال تعالى (وانها لبسبيل مقيم) ثم ذكر قصة أصحاب الأيكة ثم قال (وانهما لبامام مبين) أي بطريق متبين للناس واضح وكذلك في موضع آخر لما قال (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الاليم) وقال في سفينة نوح (ولقد تركناها آية فهل من مدكر) فأخبر انه أبقى آيات وهي العلامات والدلالات فدل ذلك على ان ما يخصه من أخبار المؤمنين وحسن عاقبتهم في الدنيا وأخبار الكفار وسوء عاقبتهم في الدنيا هو من باب الآيات والدلالات التي يستدل بها ويعتبر بها علما ووعظا فيفيد معرفة صحة ما أخبرت به الرسل ويفيد الترغيب والترهيب ويدل ذلك على ان الله يرضى عن أهل طاعته ويكرمهم ويغضب على

أهل معصيته ويعاقبهم كما يستدل بمخلوقاته العامة على قدرته فان الفعل يستلزم قدرة الفاعل باحكام الافعال على علمه لان الفعل المحكم يستلزم علم الفاعل وبالتخصيص على مشيئته لان التخصيص مستلزم لارادته فكذلك يستدل بالتخصيص بما هو أحمد عاقبة على حكمته لان تخصيص الفعل بما هو محمود فى العاقبة مستلزم للحكمة ويستدل بتخصيص الأنبياء واتباعهم بالنصر وحسن العاقبة وتخصيص مكذبيهم بالخزى وسوء العاقبة على انه يأمر ويحب ويرضى ما جاءت به الانبياء ويكره ويسخط ما كان عليه مكذبوهم لان تخصيص أحد النوعين بالاكرام والنجاة والذكر الحسن والدعاء وتخصيص الآخر بالعذاب والهلاك وقبح الذكر واللعنة يستلزم محبة مافعله الصنف الأول وبغض مافعله الصنف الثاني. وأما الارادة التى يقال فيها انها تخص أحد المثلين عن الآخر بلا سبب فتلك هل يوصف الله بها فيه نزاع فان قيل انه لا يوصف بها فلا كلام وان قيل انه يوصف بها فمعلوم ان تخصيص الانبياء عليهم السلام بهذا وتخصيص أعدائهم بهذا لم يصدر عن تخصيص بلا مخصص بل يعلم انه قصد تخصيص هؤلاء بالاكرام وهؤلاء بالعقاب وان إيمان هؤلاء سبب تخصيصهم بهذا وكفر هؤلاء سبب تخصيصهم بهذا ولبسط هذه الأمور موضع آخر لكن المقصود هنا ان هذه الثلاثة داخلة في الثلاثة الأول ولكن ابو حامد يجعل الحجاج صنعة الكلام ويجعل عمارة الطريق علم الفقه ويجعل أخبار الانبياء علم القصص ويقول ان الكلام والجدل ليس فيه بيان حق بدليل بل انما فيه دفع البدع ببيان تناقضها ويجعل أهله من جنس خفراء الحجيج ويجعل علم الفقه ليس غايته إلا مصلحة الدنيا وهذا مما نازعه فيه أكثر الناس وتكلموا فيه بكلام ليس هذا موضعه كما تكلموا على ماذكره فى هذا الكتاب جواهر القرآن وغيره من كتبه من معانى الفلسفة وجعل ذلك هو باطن القرآن وكلام علماء المسلمين على رد هذا أكثر من كلامهم على رد ذلك فان هذا فيه مما يناقض مقصود الرسول

أموراً عظيمة كما تكلموا على ما ذكره فى النبوة بما يشبه كلام الفلاسفة فيها

والمقصود إن هذا الذي ذكره في قل هو الله أحد أحسن من قول كثير من الناس فيها وهو أقرب الى القول الذي ذكرناه عن ابن سريج ونصرناه لكن ذلك القول هو الصواب بلا ريب فان النبي صلى الله عليه وسلم أخبر ان الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل قل هو الله أحد جزءاً من أجزاء القرآن وهذا يقتضى ان مجموع القرآن ثلاثة أجزاء ليس هو ستة ثلاثة أصول وثلاثة فروع وكذلك أخبر أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن لم يقل ثلث المهم منه ولا ثلث أكثره ولا أصوله فوجب أن يكون القرآن كله ثلاثة أصناف وعلى ما ذكره ابو حامد هو ستة ثلاثة مهمة وثلاثة توابع والسورة أحد الثلاثة المهمة وهذا خلاف الحديث وأيضاً فان تقسيم القرآن الي ثلاثة أقسام تقسيم بالدليل فان القرآن كلام والكلام إما إخبار وإما إنشاء والإخبار إما عن الخالق وإما عن المخلوق فهذا تقسيم بين وأما جعل علم الفقه خارجا عن الصراط المستقيم والعمل الصالح وجعل علم الأدلة والحجج خارجا عن الايمان والمعرفة بالله واليوم الآخر فهذا مردود عن جماهير السلف والخلف. وابو حامد انما ذكر هذا لانه يقول انه إنما يعرف معاني ذلك بطريق التصفية فقط لا بطريق الخبر النبوى ولا بطريق النظر الاستدلالى فلا يعرف ذلك بالسمع ولا بالعقل وهذا مما أنكره عليه الناس وصنفوا كتباً فى رد ذلك كما فعل جماعات من العلماء. ولكن عذر ابي حامد انه لم يجد فيما علمه من طريق الفلاسفة وأهل الكلام ما يبين الحق فى ذلك ولم يعلم طرقاً عقلية غير ذلك فنفى ان يعلم بطريق النظر فيه. وأما الطرق الخبرية النبوية فلم يكن له خبرة بما صح من ألفاظ الرسول وبطريق دلالة ألفاظه على مقاصده وظن بما شاركه به بعض أهل الكلام والفلسفة ان الرسول لم يبين مراده بألفاظه فتركب من هذا وهذا سد باب الطريق العقلى والسمعى وظن ان المطلوب يحصل بطريق التصفية والعمل فسلك ذلك فلم يحصل له المقصود

أيضاً فرجع فى آخر عمره الي قراءة البخاري ومسلم

(وقد ذكر القاضي عياض) أقوالا في كون قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن وكذلك المازري قبله قال قال الامام يعنى أبا عبد الله المازرى قيل معني ذلك ان القرآن على ثلاثة انحاء قصص وأحكام وأوصاف لله جلت قدرته وقل هو الله أحد تشتمل على ذكر الصفات فكانت ثلثا من هذه الجهة قال وربما أسعد هذا التأويل ظاهر الحديث الذى ذكر ان الله جزأ القرآن

﴿قلت﴾ هذا هو قول ابن سريج وهو الذي نصرناه ذكره المازري فى كلام ابن بطال كما سيأتي (قال) وقيل معني ثلث القرآن لشخص بعينه قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكره ابن بطال أيضا قال وقيل معناه ان الله يتفضل بتضعيف الثواب لقارئها ويكون منتهى التضعيف الى مقدار ثلث ما يستحق من الأجر على قراءة القرآن من دون تضعيف أجر قال وفى بعض روايات هذا الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حشد الناس وقال سأقرأ عليكم ثلث القرآن فقرأ قل هو الله أحد . قال المازري وهذه الرواية تقدح فى تأويل من جعل ذلك لشخص بعينه (قال) القاضي عياض قال بعضهم قال الله تعالى (الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) ثم بين التفصيل فقال (أن لا تعبدوا الا الله) فهذا فصل الالوهية ثم قال (انني لكم منه نذير وبشير) وهذا فصل النبوة ثم قال (وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه) فهذا فصل التكليف وما وراءه من الوعد والوعيد وعامة اجزاء القرآن بما فيه من القصص فمن فصل النبوة لانها من أدلتها وفيها أيضاً وهذا يدل على ان قل هو الله أحد جمعت الفصل الاول

﴿قلت﴾ مضمون هذا القول ان معاني القرآن ثلاثة أصناف الالهيات والنبوات والشرائع وان هذه السورة منها الالهيات وجعل صاحب هذا القول الوعد والوعيد والقصص من قسم النبوة لان ذلك مما أخبر به النبي صلى الله عليه

وسلم أو مما يدل على نبوته وهذا القول ضعيف أيضاً فانه يقال والأمر والنهي ايضا مما جاء به النبي كما جاء بالوعد والوعيد ويقال أيضا القصص تدل على الأمر والنهي كما تدل على النبوة فانها تدل على إكرامه لمن أطاعه وعقوبته لمن عصاه وهذا تقرير للأمر والنهي كما تقدم (وأيضاً) فان مقصود النبوة هو الاخبار بما أمر الله به وبما أخبر به وما دل على أثبات النبوة من القصص يدل على أثبات ماجاء به النبي وما دل على أثبات ما جاء به النبي يدل على الأمر والنهي الذي جاء به النبي فهما متلازمان (ثم) الالهيات أيضا هي مما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم فبين الدلائل العقلية على ما يمكن ان يعرف بالعقل وأخبر عن الغيب المطلق الذي تعجز العقول عن معرفته فلا معنى لجعل القصص داخلة فى النبوة دون الالهيات فانه ان عني ان القصص تدل على نبوته فهي تدل من جهة إخباره بها كاخباره بغيرها من الغيب وفيما أخبر به من الالهيات والأمور المستقبلات ما هو كالقصص فى ذلك وابلغ وان عني ان تعذيب المكذبين يدل على النبوة فهي تدل على جنس النبوة وعلى نبوة من عذب قومه لا تدل على نبوة المتأخر إلا أن يكون ما أخبر به من جنس ما أخبر به الاول وهذه الأمور كلها موجودة فى الالهيات وزيادة فانه قد أخبر فيها بمثل ما أخبرت به الانبياء قبله وقد ذكر الله ذلك فى غير موضع كقوله (واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقوله (وما أرسلنا قبلك من رسول إلا يوحى اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقوله (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقد أخبر الله عن الانبياء الذين قص أخبارهم كنوح وهود وصالح وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين ان كلا منهم يقول لقومه (ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) بل يفتتح دعوته بذلك وذكر تعالى عن الانبياء وأممهم من نوح الى الحواريين انهم كانوا مسلمين كما قد بسط في غير موضع

(وأيضاً) فالالهيات التي تعلم منها قدرة الرب وإرادته وحكمته وأفعاله منها يعلم
النبيّ من المتنبي ومنها يعلم صدق النبي فهي أدل على صدق النبي من مجرد القصص
وما في القصص من الدلالة على صدقه انما يدل مع الالهيات وإلا فلو تجرد لم
يدل على شيء فالنبوة مرتبطة بالالهيات أعظم من ارتباطها بغيرها والانبياء انما
بعثوا بالدعوة الى الله وحده وقد يذكرون المعاد مجملاً ومفصلاً والقصص قد
يذكر بعضهم بعضها مجملاً وأما الالهيات فهي الاصل ولا بد من تفصيل الأمر
بعبادة الله وحده دون ما سواه فلا بد لكل نبي من الأصول الثلاثة . الايمان
بالله . واليوم الآخر . والعمل الصالح . والأصول الكلية التي يشترك فيها الانبياء
يذكرها الله في السور المكية مثل الانعام والاعراف وذوات (الر وطسم وحم)
وأكثر المفصل ونحو ذلك المدنيات تتضمن خطاب من آمن بجنس الرسل من
أهل الكتاب من المؤمنين بالشرائع التي بعث بها خاتم الرسل . وأما قول من
قال ان هذا في شخص بعينه ففي غاية الفساد لفظاً ومعنى . ثم ان الله انما يخص
الشيء المعين بحكم يخصه لمعنى يختص به كما قال لأبي بردة بن نيار وكان قد ذبح
في العيد قبل الصلاة قبل أن يشرع لهم النبي صلى الله عليه وسلم ان الذبح يكون
بعد الصلاة . فلما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي
ثم نذبح فمن ذبح قبل الصلاة فليعد فانما هي شاة لحم قدمها لأهله . ذكر له أبو بردة
انه ذبح قبل الصلاة ولم يكن يعرف ان ذلك لا يجوز وذكر له ان عنده عناقاً
خيراً من جذعة فقال تجزى عنك ولا تجزى عن أحد بعدك . فخصه بهذا الحكم
لانه كان معذوراً في ذبحه قبل الصلاة اذ فعل ذلك قبل شرع الحكم . فلم يكن
ذلك الذبح منهياً عنه بعد مع انه لم يكن عنده الا هذا السن . وأما أمره لامرأة
أبي حذيفة بن عتبة أن ترضع سالما مولاه خمس رضعات ليصير لها محرماً .
فهذا مما تنازع فيه السلف . هل هو مختص أو مشترك وإذا قيل هذا لمن يحتاج

الى ذلك كما احتاجت هي اليه كان في ذلك جمع بين الادلة .

(وبالجملة) فالشارع حكيم لا يفرق بين متماثلين الا لاختصاص أحدهما بما
يوجب الاختصاص ولا يسوى بين مختلفين غير متساويين ، بل قد انكر
سبحانه على من نسبه الى ذلك وقبح من يحكم بذلك فقال تعالى (أم نجعل الذين
آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار) ، وقال
تعالى (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات
سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون) ،وقال تعالى (أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم
كيف تحكمون) .وقال تعالى (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر)
وقال تعالى (يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الابصار) .
وانما يكون الاعتبار اذا سوى بين المتماثلين. وأما اذا قيل ليس الواقع كذلك فلا
اعتبار . وقد تنازع الناس في هذا الاصل وهو إنه هل يخص بالامر والنهي ما
يخصه لا لسبب ولا لحكمة قط بل مجرد تخصيص أحد المتماثلين على الآخر .
فقال بذلك جهم بن صفوان ومن وافقه من الجبرية ووافقهم كثير من المتكلمين
المثبتين للقدر . (وأما) السلف وأئمة الفقه والحديث والتصوف وأكثر طوائف
الكلام المثبتين للقدر كالكرامية وغيرهم ونفاته كالمعتزلة وغيرهم فلا يقولون بهذا
الاصل بل يقولون هو سبحانه يخص ما يخصه من خلقه وأمره لاسباب ولحكمة
له في التخصيص كما بسط الكلام على هذا الاصل في مواضع (وكذلك) قول
من قال يضعف لقارئها مقدار ما يعطاه قاريء ثلث القرآن بلا تضعيف قول لا
يدل عليه الحديث ولا في العقل ما يدل عليه وليس فيه مناسبة ولا حكمة فان
النص أخبر أن قراءتها تعدل ثلث القرآن وان من قرأها فكأنما قرأ ثلث القرآن
فان كان في هذا تضعيف ففي هذا تضعيف . وان لم يكن في هذا تضعيف لم يكن
في الآخر فتخصيص أحدهما بالتضعيف تحكم (ثم جعل) التضعيف بقدر ثلث

القرآن انما هو لما اختصت به السورة من الفضل وحينئذ ففضلها هو سبب هذا التقدير من غير حاجة الى نقص ثواب سائر القرآن وأيضاً فهذا تحكم محض لا دليل عليه ولا سبب يقتضيه ولا حكمة فيه والناس كثيراً ما يغلطون من جهة نقص علمهم وايمانهم بكلام الله ورسوله وقدر ذلك وما اشتمل عليه ذلك من العلم الذي يفوق علم الأولين والآخرين ومن علم ان الرسول اعلم الخلق بالحق وأفصح الخلق في البيان وأنصح الخلق للخلق علم انه قد اجتمع في حقه كمال العلم بالحق وكمال القدرة على بيانه وكمال الارادة له ومع كمال العلم والقدرة والارادة يجب وجود المطلوب على اكمل وجه فيعلم أن كلامه أبلغ ما يكون وأتم ما يكون وأعظم ما يكون بياناً لما بينه في الدين من أمور الالهية وغير ذلك فمن وقر هذا في قلبه لم يقدر على تحريف النصوص بمثل هذه التأويلات التي اذا تدبرت وجد من أرادها بذلك القول من أبعد الناس عما يجب اتصاف الرسول به وعلم أن من سلك هذا المسلك فانما هو لنقص ما أوتيه من العلم والايمان وقد قال تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات). فنسأل الله أن يجعلنا واخواننا ممن رفع درجاته من أهل العلم والايمان. واذ قد تبين ضعف هذه الاقوال غير القول الاول الذى نصرناه وهو قول ابن سريج وغيره كالمهلب والاصيلي وغيرهما

﴿ فنقول ﴾ قد علم أن تفاضل القرآن وغيره من كلام الله ليس باعتبار نسبته الى المتكلم فانه سبحانه واحد ولكن باعتبار معانيه التي يتكلم بها وباعتبار الفاظه المبينة لمعانيه والذى قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه فضل من السور سورة الفاتحة وقال انه لم ينزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في القرآن مثلها والاحكام الشرعية تدل على ذلك وقد بسط الكلام على معانيها في غير هذا الموضع وفضل من الآيات آية الكرسي وقال في الحديث الصحيح لأبي بن كعب أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم قال (الله لا إله الا هو الحي القيوم) فضرب بيده في صدره

وقال ليهنك العلم أبا المنذر وليس في القرآن آية واحدة تضمنت ما تضمنته آية الكرسي وانما ذكر الله في أول سورة الحديد وآخر سورة الحشر عدة آيات لا آية واحدة

﴿ وسنبين ﴾ ان شاء الله انه اذا كانت قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن لم يلزم من ذلك انها أفضل من الفاتحة ولا انها يكتفى بتلاوتها ثلاث مرات عن تلاوة القرآن بل قد كره السلف أن تقرأ اذا قرئ القرآن كله الا مرة واحدة كما كتبت في المصحف فان القرآن يقرأ كما كتب في المصحف لا يزاد على ذلك ولا ينقص منه والتكبير المأثور عن ابن كثير ليس هو مسنداً عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسنده أحد الى النبي صلى الله عليه وسلم الا البزى وخالف بذلك سائر من نقله فانهم انما نقلوه اختياراً ممن هو دون النبي صلى الله عليه وسلم وانفرد هو برفعه وضعفه نقلة أهل العلم بالحديث والرجال من علماء القراءة وعلماء الحديث كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء (فالمقصود) ان من السنة في القرآن أن يقرأ كما في المصاحف ولكن اذا قرئت قل هو الله أحد مفردة تقرأ ثلاث مرات وأكثر من ذلك ومن قرأها فله من الاجر ما يعدل ثلث أجر القرآن لكن عدل الشيء بالفتح يكون من غير جنسه كما سنذكره ان شاء الله . والثواب أجناس مختلفة كما ان الاموال أجناس مختلفة من مطعوم ومشروب وملبوس ومسكون ونقد وغير ذلك (واذا) ملك الرجل من أحد أجناس المال ما يعدل ألف دينار مثلا لم يلزم من ذلك أن يستغني عن سائر أجناس المال بل اذا كان عنده مال وهو طعام فهو محتاج الى لباس ومسكن وغير ذلك (وكذلك) ان كان من جنس غير النقد فهو محتاج الى غيره وان لم يكن معه الا النقد فهو محتاج الى جميع الانواع التي يحتاج الى أنواعها ومنافعها (والفاتحة) فيها من المنافع ثناء ودعاء مما يحتاج الناس اليه مالا تقوم قل هو الله أحد مقامه في ذلك وان كان أجرها عظيما

فذلك الاجر العظيم انما ينتفع به صاحبه مع أجر فاتحة الكتاب ولهذا لو صلي بها
وحدها بدون الفاتحة لم تصح صلاته ولو قدرانه قرأ القرآن كله إلا الفاتحة لم تصح
صلاته لأن معانى الفاتحة فيها الحوائج الاصلية التي لا بد للعباد منها وقد بسط
الكلام عليها في غير هذا الموضع وبين ان ما فى الفاتحة من الثناء والدعاء وهو
قول (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا
الضالين) هو أفضل دعاء دعا به العبد ربه وهو أوجب دعاء دعا به العبد ربه
وأنفع دعاء دعا به العبد ربه فانه يجمع مصالح الدين والدنيا والآخرة والعبد دائما
محتاج اليه لا يقوم غيره مقامه فلو حصل له أجر تسعة أعشار القرآن دع ثلثه
ولم يحصل له مقصود هذا الدعاء لم يقم مقامه ولم يسد مسده وهذا كما لو قدر
أن الرجل تصدق بصدقات عظيمة وجاهد جهاداً عظيما يكون أفضل من قراءة
القرآن مرات وهو لم يصلّ ذلك اليوم الصلوات الخمس لم يقم ثواب هذه الاعمال
مقام هذه كما لو كان عند الرجل من الذهب والفضة والرقيق والحيوان والعقار
أموال عظيمة وليس عنده ما يتغذي به ويتعشي من الطعام فانه يكون جائعاً متألما
فاسد الحال ولا يقوم مقام الطعام الذي يحتاج اليه تلك الأموال العظيمة ولهذا
قال الشيخ أبو مدين رحمه الله أشرف العلوم علم التوحيد وأنفع العلم احكام العبيد
فليس الأفضل الاشرف هو الذى ينفع فى وقت بل الأنفع في كل وقت مايحتاج
اليه العبد فى ذلك الوقت وهو فعل ما أمر الله به وترك مانهاه الله عنه ولهذا
يقال المفضول في مكانه وزمانه أفضل من الفاضل إذ دلّ الشرع على أن الصلاة
أفضل من القراءة والقراءة أفضل من الذكر والذكر أفضل من الدعاء فهذا أمر
مطلق وقد تحرم الصلاة في أوقات فتكون القراءة أفضل منها في ذلك الوقت
والتسبيح في الركوع والسجود هو المأمور به والقراءة منهى عنها ونظائر هذا
كثيرة فهكذا يعلم الأمر فى فضل قل هو الله أحد وغيرها فقراءة الفاتحة في

أول الصلاة أفضل من قراءتها بل هو الواجب والاجتزاء بها وحدها لا يمكن
بل تبطل معه الصلاة ولهذا وجب التقرب بالفرائض قبل النوافل والتقرب
بالنوافل انما يكون تقربا اذا فعلت الفرائض لا كما ظنه بعض الاتحادية كصاحب
الفتوحات المكية ونحوه من أن قرب الفرائض يكون بعد قرب النوافل والنوافل
تجعل الحق غطاءه وتلك تجعل الحق عينه . فهذا بناء على أصله الفاسد من الاتحاد
كما بيّن وبيّن ان الحديث يناقض مذهبه من وجوه كما رواه البخارى في صحيحه
عن أبي هريرة عن النبي صلي الله عليه وسلم يقول الله من عادي لي وليا فقد بارزني
بالمحاربة وما تقرب الى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب اليّ
بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر
به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش
وبي يمشي ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا
فاعله ترددي عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد
منه . وقد بين فى هذا الحديث ان المتقرب ليس هو المتقرب اليه بل هو غيره .
وانه ماتقرب اليه عبده بمثل اداء المفروض وانه لا يزال بعد ذلك يتقرب بالنوافل
حتى يصير محبوبا لله فيسمع به ويبصر به ويبطش به ويمشى به . ثم قال ولئن سألني لأعطينه
ولئن استعاذني لأعيذنه ففرق بين السائل والمسؤل والمستعيذ والمستعاذ به وجعل
العبد سائلا لربه مستعيذاً به وهذا حديث شريف جامع لمقاصد عظيمة ليس هذا موضعها
بل المقصود هنا الكلام على قل هو الله أحد . وقد بينا ان أحسن الوجوه ان معاني
القرآن ثلاثة أنواع توحيد وقصص وأحكام . وهذه السورة صفة الرحمن فيها
التوحيد وحده وذلك لان القرآن كلام الله . والكلام نوعان إما إنشاء وإما إخبار
والاخبار إما خبر عن الخالق وإما خبر عن المخلوق فالانشاء هو الاحكام كالامر
والنهي والخبر عن المخلوق هو القصص والخبر عن الخالق هو ذكر اسمائه وصفاته

وليس في القرآن سورة هي وصف الرحمن محضاً الا هذه السورة . وفي الصحيحين
عن عائشة رضي الله تعالى عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سرية
فكان يقرأ لاصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد فلما رجعوا ذكروا ذلك
لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سلوه لاي شيء يصنع ذلك فسألوه فقال لانها صفة
الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخبروه ان الله يحبه
وقال البخاري في باب الجمع بين السورتين في ركعة وقال عبيد الله عن ثابت عن أنس
كان رجل من الانصار يؤمهم في مسجد قباء فكان كلما افتتح سورة يقرأ لهم بها في
الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد حتى يفرغ منها ثم يقرأ بسورة أخرى معها
فكان يصنع ذلك في كل ركعة فكلمه أصحابه وقالوا انك تفتتح بهذه السورة ثم
لا ترى انها تجزيك حتي تقرأ بأخرى فأما أن تقرأ بها وأما أن تدعها وتقرأ بأخرى
فقال ما أنا بتاركها ان أحببتم ان أؤمكم بذلك فعلت وان كرهتم ذلك تركتكم وكانوا
يرون انه من أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره فلما أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم
اخبروه الخبر . فقال يافلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك وما يحملك
على لزوم هذه السورة في كل ركعة . قال إني أحبها قال حبك اياها أدخلك الجنة .
وقول النبي صلى الله عليه وسلم إنها تعدل ثلث القرآن حق كما أخبر به فانه صلى الله
عليه وسلم الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوي لم يخرج من بين شفتيه
الا حق (والذين) أشكل عليهم هذا القول لهم مأخذان أحدهما منع تفاضل كلام
الله بعضه على بعض وقد تبين ضعفه (الثاني) اعتقادهم ان الاجر يتبع كثرة
الحروف فما كثرت حروفه من الكلام يكون أجره أعظم . قالوا لان النبي صلى الله
الله عليه وسلم قال من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات أما اني لا اقول
الم حرف ولكن ألف حرف . ولام حرف . وميم حرف . قال الترمذي حديث صحيح
قالوا ومعلوم ان ثلث القرآن حروفه اكثر بكثير فتكون حسناته اكثر (فيقال لهم)

هذا حق كما اخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ولكن الحسنات فيها كبار وصغار والنبي
صلى الله عليه وسلم مقصوده ان الله يعطي العبد بكل حسنة عشر أمثالها كما قال
تعالي (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) فاذا قرأ حرفا كان ذلك حسنة فيعطيه بقدر
تلك الحسنة عشر مرات لكن لم يقل ان الحسنات في الحروف متماثلة . كما ان من
تصدق بدرهم يعطى بهذه الحسنة عشر أمثالها . ومن تصدق بدينار يعطى بتلك
الحسنة عشر أمثالها . والواحد من بعد السابقين الأولين لو أنفق مثل أحد ذهبا
ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه كما ثبت ذلك في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه
وسلم فهو اذا أنفق مدا كان له بهذه الحسنة عشر أمثالها ولكن لا تكون تلك
الحسنة بقدر حسنة من أنفق مداً من الصحابة السابقين ونظائر هذا كثيرة .
فكذلك حروف القرآن تتفاضل لتفاضل المعاني وغير ذلك فحروف الفاتحة له بكل
حرف منها حسنة أعظم من حسنات حروف من (تبت يدا أبي لهب) واذا كان الشيء
يعدل غيره فعدل الشيء بالفتح هو مساويه . وان كان من غير جنسه . كما قال
تعالى (أو عدل ذلك صياما) والصيام ليس من جنس الطعام والجزاء ولكنه يعادله في
القدر . وكذلك قوله (لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا) وقوله تعالى (ولا يقبل منها عدل)
اي فدية والفدية ما يعدل بالمفدي وان كان من غير جنسه (والذين كفروا بربهم
يعدلون) أي يجعلون له عدلا أي ندا في الالهية وان كانوا يعلمون انه ليس من
جنس الرب سبحانه . ولو كان لرجل أموال من أصناف متنوعة ولآخر ذهب
بقدر ذلك لكان مال هذا يعدل مال هذا وان لم يكن من جنسه ولهذا قد يكون
عند الرجل من الذهب وغيره من الاموال ما يعدل شيئاً عظيما . واذا احتاج الى
دواء أو مركب أو مسكن أو نحو ذلك ولم يكن قادراً على اشترائه لم تنفعه تلك
الاموال العظيمة . فالقرآن يحتاج الناس الى ما فيه من الامر والنهي والقصص
وان كان التوحيد أعظم من ذلك . واذا احتاج الانسان الى معرفة ما أمر به وما

نهى عنه من الافعال أو احتاج الى ما يؤمر به ويعتبر به من القصص والوعد والوعيد
لم يسد غيره مسده فلا يسد التوحيد مسد هـذا . ولا يسد القصص مسد الأمر
والنهى ولا الأمر والنهي مسـد القصص . بل كل ما انزل الله ينتفع به الناس
ويحتاجون اليـه. فاذا قرأ الانسان قل هو الله أحد حصل له ثواب بقدر ثواب
ثلث القرآن لـكن لا يجب ان يكون الثواب من جنس الثواب الحاصل ببقية
القرآن . بل قد يحتاج الى جنس الثواب الحاصل بالأمر والنهي والقصص فلا
تسد قل هو الله احد مسد ذلك ولا تقوم مقامه . فلهذا لو لم يقرأ قل هو الله أحد
فانه وان حصل له أجر عظيم لـكن جنس الاجر الذي يحصل بقراءة غيرها لا يحصل
له بقراءتها بل يبقى فقيرا محتاجا الى ما يتم به ايمانه من معرفة الأمر والنهي والوعد
والوعيد ولو قام بالواجب عليه . فالمعارف التي تحصل بقراءة سائر القرآن لا تحصل
بمجرد قراءة هـذه السورة فيكون من قرأ القرآن كله أفضل ممن قرأها ثلاث
مرات من هذه الجهة لتنوع الثواب وان كان قارئ قل هو الله أحد ثلاثا يحصل له
ثواب بقدر ذلك الثواب لـكنه جنس واحد ليس فيه الانواع التي يحتاج اليها العبد
كمن معه ثلاثة آلاف دينار وآخر معه طعام ولباس ومساكن ونقد يعدل ثلاثة
آلاف دينار فان هذا معه ما ينتفع به في جميع أموره وذاك محتاج الى ما مع هذا
وان كان ما معه يعـدل ما مع هذا . وكذلك لو كان معه طعام من أشرف
الطعام يساوي ثلاثة آلاف دينار فانه محتاج الى لباس ومساكن وما يدفع به
الضرر من السلاح والأدوية وغير ذلك مما لا يحصل بمجرد الطعام

(ومما) ينبغى أن يعلم أن فضل القراءة والذكر والدعاء والصلاة وغير ذلك
قد يختلف باختلاف حال الرجل فالقراءة بتدبر أفضل من القراءة بلا تدبر .
والصلاة بخشوع وحضور قلب افضل من الصلاة بدون ذلك وفي الأثر ان
الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدا وبين صلاتيهما كما بين السماء والارض

وكان بعض الشيوخ يرقي بقل هو الله احد وكان لها بركة عظيمة فيرقى بها غيره
فلا يحصل ذلك فيقول ليس قل هو أحد من كل أحد تنفع كل أحـد (واذا)
عرف ذلك فقد يكون تسبيح بعض الناس أفضل من قراءة غيره ويكون قراءة
بعض السور من بعض الناس أفضل من قراءة غيره لقل هو الله أحد وغيرها
والانسان الواحـد يختلف أيضاً حاله فقد يفعل العمل المفضول على وجه كامل
فيكون به أفضل من سائر اعماله الفاضلة وقد غفر الله لبغي لسقيها الكلب كما ثبت
ذلك في الصحيحين وهذا لما حصل لها في ذلك العمل من الأعمال القلبية وغيرها
وقد ينفق الرجل أضعاف ذلك فلا يغفر له لعدم الاسباب المزكية للعمل فان الله
انما يتقبل من المتقين . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح
لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد احدهم ولا نصيفه يقول عن اصحابه
السابقين الأولين رضي الله عنهم. فاذا قيل ان قل هو الله احد يعدل ثوابها ثواب
ثلث القرآن . فلا بد من اعتبار التماثل في سائر الصفات والا فاذا اعتـبر قراءة
غيرها مع التـدبر والخشوع بقراءتها مع الغفلة والجهل لم يكن الأمر كذلك .
بل قد يكون قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مع حضور
القلب والتصاقه بمعانيها افضل من قراءة هـذه السورة مع الجهل والغفـلة .
والناس متفاضلون في فهم هذه السورة وما اشتملت عليه كما انهم متفاضلون في
فهم سائر القرآن .

﴿ فصل ﴾ وأصل هذه المسألة ان يعلم ان التفاضل والتماثل انما يقع بين
شيئين فصاعداً إذ الواحد من كل وجه لا يعقل فيه شيء أفضل من شيء فالتفاضل
في صفاته تعالى انما يعقل اذا أثبت له صفات متعددة كالعلم والقـدرة والارادة
والمحبة والبغض والرضا والغضب وكاثبات اسماء له متعددة تدل على معان متعددة
وأثبت له كلمات متعددة تقوم بذاته حتى يقال هل بعضها افضل من بعض ام لا

وكل قول سوي قول السلف والائمة في هذا الباب فهو خطأ متناقض واي شيء قاله في جواب هذه المسألة كان خطأ لا يمكنه أن يجيب فيها بجواب صحيح فمن قال انه ليس له صفة ثبوتية بل ليس له صفة الا سلبية أو اضافية كما يقول ذلك الجهمية المحضة من المتفلسفة والمتكلمة اتباع جهم بن صفوان فهذا اذا قيل له أيهما افضل نسبته التي هي الخلق الى السموات والأرض أم الي بعوضة ام أيما افضل نفي الجهل بكل شيء عنه والعجز عن كل شيء أم نفي الجهل بالكليات لم يمكنه أن يجيب بجواب صحيح على أصله الفاسد فانه ان قال خلق السموات مماثل خلق البعوضة كان هذا مكابرة للعقل والشرع قال تعالى (لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس) وان قال بل ذلك أعظم وأكبر كما في القرآن قيل له ليس عندك أمران وجوديان يفضل أحدهما الآخر إذ الخلق على قولك لا يزيد على المخلوق فلم يبق الا العدم المحض فكيف يعقل في المعدومين من كل وجه أن يكون أحدهما افضل من صاحبه اذا لم يكن هناك وجود يحصل فيه التفاضل وكذلك اذا قيل نفي الجهل والعجز عن بعض الأشياء مثل نفي ذلك عن بعض الاشياء كان هذا مكابرة وان قال بل نفي الجهل العام اكمل من نفي الجهل الخاص قيل له اذا لم يلزم من نفي الجهل ثبوت علم بشيء من الاشياء بل كان النفيان عدميين محضين فكيف يعقل التفاضل في الشيء الواحد من كل وجه فانه لا يعقل في العدم المحض والنفي الصرف فان ذاك ليس بشيء أصلاً ولا حقيقة له في الوجود ولا فيه كمال ولا مدح وانما يكون التفاضل بصفات الكمال والكمال لا بد أن يكون وجودا قائما بنفسه أو صفة موجودة قائمة بغيرها فاما العدم المحض فلا كمال فيه أصلاً ولهذا إنما يصف الله نفسه بصفات التنزيه لا السلبية العدمية لتضمنها اموراً وجودية تكون كما لا يتمدح سبحانه بها كما قد بسط في غير هذا الموضع كقوله تعالى (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) فنفي ذلك يتضمن كمال

الحياة والقيومية وكذلك قوله (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) يتضمن كمال الملك والربوبية وانفراده بذلك ونفس انفراده بالملك والهداية والتعليم وسائر صفات الكمال هو من صفات الكمال

ولهذا كانت السورة فيها الاسمان الأحد الصمد وكل منهما يدل على الكمال فقوله أحد يدل على نفي النظير وقوله الصمد بالتعريف يدل على اختصاصه بالصمدية ولهذا جاء التعريف في اسمه الصمد دون الأحد لأن أحداً لا يوصف به في الأثبات غيره بخلاف الصمد فان العرب تسمي السيد صمداً . قال يحيى بن أبي كثير الملائكة تسمي صمداً والآدمي أجوف فقوله الصمد بيان لاختصاصه بكمال الصمدية وقد ذكرنا تفسير الصمد واشتماله على جميع صفات الكمال كما رواه العلماء من تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس وقد ذكره ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهم في قوله الصمد يقول السيد الذي قد كمل في سؤدده والشريف الذي قد كمل في شرفه والعظيم الذي قد كمل في عظمته والحكيم الذي قد كمل في حكمته والعليم الذي قد كمل في علمه والحليم الذي قد كمل في حلمه وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد وهو سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له ليس له كفؤ وليس كمثله شيء سبحان الواحد القهار، وكذلك قد ثبت من حديث الأعمش عن أبي وائل وقد ذكره البخاري في صحيحه ورواه كثير من أهل العلم في كتبهم قال الصمد السيد الذي انتهى سؤدده وقد قال غير واحد من السلف كابن مسعود وابن عباس وغيرهما الصمد الذي لا جوف له وكلا القولين حق موافق للغة كما قد بسط في موضعه أما كون الصمد هو السيد فهذا مشهور وأما الآخر فهو ايضا معروف في اللغة .

وقد ذكر الجوهري وغيره ان الصمد لغة في الصمت وليس هذا من ابدال الدال بالتاء كما ظنه بعضهم . بل لفظ صمد يصمد صمداً يدل على ذلك

والمقصود هنا ان صفات الكمال انما هى في الأمور الموجودة والصفات السلبية إنما تكون كما لا إذا تضمنت أمورا وجودية ولهذا كان تسبيح الرب يتضمن تنزيهه وتعظيمه جميعاً فقول العبد سبحان الله يتضمن تنزيه الله وبراءته من السوء. وهذا المعني يتضمن عظمته في نفسه ليس هو عدما محضا لا يتضمن وجودا فان هذا لا مدح فيه ولا تعظيم. وكذلك سائر ما تنزه الرب عنه من الشركاء والاولاد وغير ذلك. كقوله تعالى (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة أناثا انكم لتقولون قولا عظيما) . الى قوله . (اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وإن من شئ الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا) . وقوله تعالى (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين) وغير ذلك فنفي العيوب والنقائص يستلزم ثبوت الكمال ونفى الشركاء يقتضى الوحدانية وهو من تمام الكمال فان ماله نظير قد انقسمت صفات الكمال وأفعال الكمال فيه وفى نظيره. فحصل له بعض صفات الكمال لا كلها . فالمنفرد بجميع صفات الكمال أكمل ممن له شريك يقاسمه اياها . ولهذا كان أهل التوحيد والاخلاص أكمل حبا لله من المشركين الذين يحبون غيره الذين اتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه قال تعالى . (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله. والذين آمنوا أشد حباً لله) وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع. قد بين فيه أن هذا من الشرك الاكبر الذى لا يغفره الا الله تعالى . وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أى الذنب اعظم قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزني بحليلة جارك . وأنزل الله تعالى تصديق ذلك (والذين لا يدعون من الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون) الآية فمن جعل لله نداً يحبه كحب الله فهو ممن دعا مع الله إلهاً

آخر وهذا من الشرك الاكبر

والمقصود هنا ان الشئ اذا انقسم ووقعت فيه الشركة نقص ما يحصل لكل واحد فاذا كان جميعه لواحد كان أكمل فلهذا كان حب المؤمنين الموحدين المخلصين لله أكمل . وكذلك سائر مانهوا عنه من كبائر الاثم والفواحش يوجب كمال الأمور الوجودية في عباداتهم وطاعتهم ومعرفتهم ومحبتهم . وذلك من زكاتهم . كما ان الزرع كلما نفي عنه الدغل كان أزكى له وأكمل لصفات الكمال الوجودية فيه قال تعالى (وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة)واصل الزكاة التوحيد والاخلاص كما فسرها بذلك أكابر السلف . وقال تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم) وقال (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) . وهذا كله مبسوط فى غير هذا الموضع

والمقصود هنا ان من نفى عن الله النقائص كالموت والجهل والعجز والصمم والعمى والبكم ولم يثبت له صفات وجودية كالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام بل زعم ان صفاته ليست الا عدمية محضة وانه لا يوصف بأمر وجودي فهذا لم يثبت له صفة كمال أصلا فضلا عن أن يقال أى الصفتين أفضل . فان التفضيل بين الشيئين فرع كون كل منهما له كمالٌ ما. ثمّ ينظر أيهما أكمل فاما اذا قدر أن كلا منهما عدم محض فلا كمال ولا فضيلة هناك أصلا

وكذلك من أثبت له الاسماء دون الصفات فقال انه حى عليم قدير سميع بصير عزيز حكيم . ولكن هذه الاسماء لا تتضمن اتصافه بحياة ولا علم ولا قدرة ولا سمع ولا بصر ولا عزة ولا حكمة . فاذا قيل له أي الاسمين أفضل لم يجب بجواب صحيح فانه إن قال العليم أعظم من السميع لعموم تعلقه مثلا . أو قال العزيز اكمل من القدير لانه مستلزم للقدرة من غير عكس قيل اذا لم يكن للاسماء عندك معان موجودة تقوم به لم يكن هناك لا علم ولا سمع ولا بصر ولا عز ولا

قدرة . ليس الا ذات مجردة عن صفات ومخلوقات والذات المجردة ليس فيها ما يمكن
أن يقع فيه تفاضل ولا تماثل والمخلوقات لم يكن السؤال عن تفضيل بعضها على بعض
فان ذلك مما يعلمه كل واحد ولا يشتبه على عاقل وكذلك من جعل بعض صفاته
بعضاً أو جعل الصفة هي الموصوف مثل من قال العلم هو القدرة والعلم والقدرة
هما العالم القادر كما يقول ذلك من يقوله من جهمية الفلاسفة ونحوهم أو قال كلامه
كله هو معني واحد قائم بذاته هو الامر بكل مأمور عن كل مخبر به إن عبر عنه
بالعربية كان قرآناً وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة وان عبر عنه بالسريانية كان انجيلا
وان معني آية الكرسي وآية الدين واحد وان الامر والنهي صفات نسبية للكلام
ليست أنواعاً بل ذات الكلام الذي هو أمر هو ذات الكلام الذي هو نهي وانما
تنوعت الاضافة فهذا الكلام الذي تقوله الكلابية وإن كان جمهور العقلاء يقولون
ان مجرد تصوره كاف في العلم بفساده فلا يمكن على هذا القول الجواب بتفضيل
كلام الله بعضه على بعض ولا مماثلة بعضه لبعض لان الكلام على قولهم شئ
واحد بالعين لا يتعدد ولا يتبعض فكيف يمكن أن يقال هل بعضه أفضل من
بعض أم بعضه مثل بعض ولا بعض له عندهم وان قالوا التماثل والتفاضل يقع في
العبارة الدالة عليه قيل تلك ليست كلاماً لله على أصله ولا عند أئمتهم بل هي مخلوق
من مخلوقاته والتفاضل في المخلوقات لا اشكال فيه ومن قال من اتباعهم إنها تسمى كلام
الله حقيقة وان اسم الكلام يقع عليها وعلى معنى ذلك المعنى القائم بالنفس بالاشتراك
اللفظي فانه لم يعقل حقيقة قولهم بل قوله هذا يفسد أصلهم لان اصل قولهم إن
الكلام لا يقوم الا بالمتكلم لا يقوم بغيره إذ لو جاز قيام الكلام بغير المتكلم لجاز
أن يكون كلام الله مخلوقاً قائماً بغيره مع كونه كلام الله .

وهذا أصل الجهمية المحضة والمعتزلة الذين خالفهم فيه الكلابية وسائر المثبتة
وقالوا ان المتكلم لا يكون متكلماً حتى يقوم به الكلام وكذلك في سائر الصفات

قالوا لا يكون العالم عالماً حتى يقوم به العلم ولا يكون المريد مريداً حتى تقوم به
الارادة فلو جوزوا أن يكون لله ما هو كلام له وهو مخلوق منفصل عنه بطل هذا الاصل
وأصل النفاة المعطلة من الجهمية والمعتزلة انهم يصفون الله بما لم يقم به بل
بما قام بغيره أو بما لم يوجد . ويقولون هذه اضافات لا صفات فيقولون هو رحيم
ويرحم والرحمة لا تقوم به بل هي مخلوقة وهي نعمته . ويقولون هو يرضى ويغضب
والرضي والغضب لا يقوم به بل هو مخلوق وهو ثوابه وعقابه . ويقولون هو
متكلم ويتكلم والكلام لا يقوم به بل هو مخلوق قائم بغيره . وقد يقولون
هو مريد ويريد ثم قد يقولون ليست الارادة شيئاً موجوداً . وقد يقولون انها
هي المخلوقات والامر المخلوق . وقد يقولون أحدث إرادة لا في محل . وهذا
الاصل الباطل الذي أصلته نفاة الصفات الجهمية المحضة من المعتزلة وغيرهم .
هو الذي فارقهم به جميع المثبتة للصفات من السلف والأئمة وأهل الفقه والحديث
والتصوف والتفسير وأصناف نظار المثبتة كالكلابية ومن اتبعهم من الاشعرية
وغيرهم وكالهشامية والكرامية وغيرهما من طوائف النظار المثبتة للصفات وعلى
هذا أئمة المسلمين المشهورون بالامامة وأئمة الفقهاء من اتباعهم من أصحاب مالك
والشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم . فقول من قال إن الكلام يقع حقيقة على
العبارة وهي مع ذلك مخلوقة تناقض الاصل الفارق بين المثبتة والمعطلة الا أن يسمى
متعلق الصفة باسم الصفة . كما يسمى المأمور به أمراً والمرحوم به رحمة والمخلوق
خلقا والقدر قدرة والمعلوم علما لكن يقال له هذا كله ليس هو الحقيقة عند الاطلاق
وأيضا فهذه الامور أعيان قائمة بأنفسها فاذا أضيفت الى الله علم أنها إضافة ملك لا إضافة
وصف بخلاف العبارة فانها لا تقوم بنفسها كما لا يقوم المعني بنفسه وهذا هو الاصل
الفارق بين اضافة الصفات واضافة المخلوقات فان المعطلة النفاة من الصابئة
والفلاسفة والمعتزلة وغيرهم من الجهمية ومن اتبعهم كابن عقيل وابن الجوزي

وغيرهما في بعض مصنفاتهما وان كانا في موضع آخر يقولان بخلاف ذلك يقولون ليس فى النصوص الا إضافة هذه الامور الى الله . وهذه الامور تسمى نصوص الاضافات لا نصوص الصفات ويقولون نصوص الاضافات وأحاديث الاضافات لا آيات الصفات وأحاديث الصفات . والاضافة تكون إضافة مخلوق لاختصاصه ببعض الوجوه كاضافة البيت والناقة والروح في قوله (وطهر بيتى) وقوله (ناقة الله) وقوله (فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا)

(وقالت) الحلولية من النصارى وغلاة الشيعة والصوفية ومن اتبعهم ممن يقول بقدم الروح أرواح العباد . وينتسب الى أئمة المسلمين كالشافعي وأحمد وغيرهما مثل طائفة من أهل جيلان وغيرهم . بل اضافة الروح الى الله كاضافة الكلام والقدرة . والكلام والقدرة صفاته فكذلك الروح . وقالوا فى قوله (فاذا سويته ونفخت فيه من روحى) دليل على ان روح العبد صفة لله قديمة . وقالت النصاري عيسي كلمة الله وكلام الله غير مخلوق فعيسى غير مخلوق . وقالت الصابئة الجهمية عيسي كلمة الله وهو مخلوق والقرآن كلام الله فهو أيضاً مخلوق . وهذه المواضع اشتبهت على كثير من الناس وقد تكلم فيها الأئمة كاحمد بن حنبل وغيره . وتكلموا في اضافة الكلام والروح ومناظرة الجهمية والنصاري (وقد) سئلت عن ذلك من جهة الحلولية تارة ومن جهة المعطلة تارة والسائلون تارة من أهل القبلة وتارة من غير أهلها . وقد بسط جواب ذلك فى غير موضع لكن المقصود هنا ان الفارق بين المضافين ان المضاف ان كان شيئاً قائما بنفسه أو حالا فى ذلك القائم بنفسه . فهذا لا يكون صفة لله لان الصفة قائمة بالموصوف . فالاعيان التي خلقها الله قائمة بانفسها وصفاتها القائمة بها تمتنع أن تكون صفات لله فاضافتها اليه تتضمن كونها مخلوقة مملوكة لكن أضيفت لنوع من الاختصاص المقتضى للاضافة لا لكونها صفة . والروح الذي هو جبريل من هذا الباب . كما ان الكعبة والناقة من هذا الباب

ومال الله من هذا الباب . وروح بني آدم من هذا . وذلك كقوله (فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا) . (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي) . (وطهر بيتى) (ناقة الله وسقياها) . (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول) . (وأما) إن كان المضاف اليه لا يقوم بنفسه بل لا يكون الا صفة كالعلم والقدرة والكلام والرضا والغضب فهذا لا يكون الا اضافة صفة اليه فتكون قائمة به سبحانه . فاذا قيل استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك . فعلمه صفة قائمة به . وقدرته صفة قائمة به وكذلك اذا قيل أعوذ برضاك من سخطك . وبمعافاتك من عقوبتك . فرضاه وسخطه قائم به وكذلك عفوه وعقوبته . (وأما) أثر ذلك وهو ما يحصل للعبد من النعمة واندفاع النقمة فذاك مخلوق منفصل عنه ليس صفة له وقد يسمى هذا باسم ذاك كما فى الحديث الصحيح يقول الله للجنة أنت رحمتى ارحم بك من أشاء من عبادى فالرحمة هنا عين قائمة بنفسها لا يمكن أن تكون صفة لغيرها . فهذا هو الفارق بين ما يضاف إضافة وصف وإضافة ملك . واذا قيل المسيح كلمة الله فمعناه إنه مخلوق بالكلمة إذ المسيح نفسه ليس كلاما

(وهذا) بخلاف القرآن فانه نفسه كلام والكلام لا يقوم بنفسه الا بالمتكلم فاضافته الي المتكلم اضافة صفة الى موصوفها وان كان يتكلم بقدرته ومشيئته وان سمي فعلا بهذا الاعتبار وهو صفة باعتبار قيامه بالمتكلم واذا كان كذلك فمن قال ان الكلام معني واحد قائم بذات المتكلم لم يمكنه ان يجيب عن هذه المسألة بجواب صحيح . فاذا قيل له كلام الله هل بعضه أفضل من بعض امتنع الجواب على أصله بنعم أم لا لامتناع تبعضه عنده . ولكون العبارة ليست كلاما لله لكن اذا أريد بالكلام العبارة أو قيل له هل بعض القرآن أفضل من بعض وأريد بالقرآن الكلام العربي الذي نزل به جبريل الذى هو عنده مخلوق لم يتكلم الله به بل هو عنده انشاء جبريل أو غيره . أو قيل هل بعض كتب الله أفضل من

بعض وكتاب الله عنده هو القرآن العربي المخلوق عنده فهذا السؤال يتوجه على قوله في الظاهر وأما في نفس الأمر فكلاهما ممتنع على قوله لأن العبارة تدل على المعاني فان المعاني القائمة في النفس تدل عليها العبارات وقد علم ان العبارات تدل على معان متنوعة . وعلى أصله ليس المعنى الا واحداً فيمتنع بالضرورة العقلية أن يكون القرآن العربي كله والتوراة والانجيل وسائر ما يضاف الى الله من العبارات انما يدل على معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض . وحينئذ فتبعض العبارات الدالة على المعاني بدون تبعض تلك المعاني ممتنع . ولهذا قيل لهم موسى عليه السلام لما سمع كلام الله . أسمعه كله أم سمع بعضه . إن قلتم كله فقد علم كل ما أخبر الله به وما أمر به (وقد) ثبت في الصحيح ان الخضر قال له ما نقص علمي وعلمك من علم الله الا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر . وقد قال تعالى (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) . (وان) قلتم سمع بعضه فقد تبعض وعندكم لا يتبعض

وأيضا فقد فرق الله بين تكليمه لموسى عليه الصلاة والسلام وبين ايحائه الي غيره من النبيين وفرق بين الايحاء وبين التكليم من وراء حجاب فلو كان المعنى واحداً لكان الجميع ايحاء ولم يكن هناك تكليم يتميز على ذلك . ولا يمتنع أن يكون الرب تعالى مناديا لاحد إذ المعني القائم بالنفس لا يكون نداء وقد أخبر الله تعالي بندائه في القرآن في عدة مواضع وعلى هذا فمن قال من هؤلاء إن كلام الله لا يفضل بعضه بعضا فحقيقة قوله إن هذه المسألة ممتنعة فليس هناك أمران حتى يقال ان أحدهما يكون مثل الآخر أو افضل منه . والتماثل والتفاضل انما يعقل بين اثنين فصاعدا (وهكذا) عند هؤلاء في إرادته وعلمه وسمعه وبصره . فكل من جعل الصفة واحدة بالعين امتنع على قوله أن يقال هل بعضها أفضل من بعض أم لا إذ لا بعض لها عنده (وكذلك) من وافق هؤلاء على وحدة هذه الصفات بالعين

وقال ان كلام الله حروف قديمة الاعيان أو حروف وأصوات قديمة الاعيان سواء قال مع ذلك انها أعيان الاصوات المسموعة من القراء . أو قال انها بعض الاصوات المسموعة من القراء . وان كان فساد ذلك معلوماً بالاضطرار وقال ان هذه الاصوات غير تلك (فمن) قال بأن الكلام حروف أو حروف وأصوات مقترن بعضها ببعض ازلا وأبدا وهي مع ذلك شيء واحد فقوله معلوم الفساد عند جمهور العقلاء كما ان من جعلها قولا واحداً فقوله معلوم الفساد عند جمهور العقلاء على كل تقدير فيمتنع مع القول بوحدة شيء أن يقال هل بعضه أفضل من بعض أم لا .

(وأما) من أثبت ما يتعدد من المعاني والحروف أو احدهما فهذا يعقل على قوله السؤال عن التماثل والتفاضل . (ثم) حينئذ يقع السؤال هل يتفاضل كلام الله وصفاته وأسماؤه أم لا يقع التفاضل الا في المخلوق (وعلى) هذا فما ذكره ابن بطال في شرح البخاري لما تكلم على هذا الحديث حيث قال قال المهلب وحكاه عن الاصيلي ومذهب الاشعري وأبي بكر ابن الطيب وابن أبي زيد والداودي وأبي الحسن القابسي وجماعة علماء السنة ان القرآن لا يفضل بعضه بعضا إذ كله كلام الله تعالى وصفته وهو غير مخلوق ولا يجوز التفاضل الا في المخلوقات (وهو) نقل لاقوال هؤلاء بحسب ما ظنه لازما لهم حيث اعتقد ان التفاضل لا يكون الا في المخلوق والقرآن عند هؤلاء ليس بمخلوق (لكن) قدمنا ان السلف الذين قالوا انه غير مخلوق لم ينقل عن أحد منهم انه قال ليس بعضه أفضل من بعض بل المنقول عنهم خلاف ذلك (وأما) نقل هذا القول عن الاشعري وموافقيه فغلط عليهم إذ كلام الله عندهم ليس له كل ولا بعض ولا يجوز أن يقال هل يفضل بعضه بعضا أو لا يفضل فامتناع التفاضل فيه عنده كامتناع التماثل . ولا يجوز أن يقال انه متماثل ولا متفاضل إذ ذلك لا يكون الا بين شيئين (ولكن) هذا السؤال يتصور عنده في الصفات المتعددة كالعلم والقدرة فيقال

أيهما أفضل فان كان قال ان صفات الرب لاتتفاضل لان مقتضي الافضل نقص المفضول عنه فانما يستقيم هذا الجواب في هـذه الصفات المتعددة لافى نفس الـكلام . مع ان هـذا النقل عن الاشعرى في نفي تفاضل الصفات غير محرر . فان الاشعرى لم يقل ان الصفات لا تتفاضل بل هـذا خطأ عليه ولـكن هو يقول ان الـكلام لا يدخله التفاضل كما لا يدخله التماثل لانه واحد عنده لالما ذكر (وأما) الصفات المتعددة فانه قدصرح بانه ليست متماثلة ومذهبه أن الذات ليست مثل الصفات ولا كل صفة مثل الاخرى فهو لا يثبت تماثل المعانى القديمة عنـده فكيف يقال على أصله ما يوجب تماثلها ، واذا امتنع من اطلاق التفاضل فهو كامتناعه من اطلاق لفظ التماثل وكامتناعه من اطلاق لفظ التغاير

وفي الجملة فمن نقل عنه انه نفي التفاضل وأثبت التماثل فقد أخطأ لـكن قد لايطلق لفظ التفاضل كما لا يطلق لفظ التماثل لا لأن الصفات متماثلة عنده بل هو ينفى التماثل لعدم التعدد ولعدم اطلاق التغاير . كما يقال هل يقال الصفات مختلفة أم لا وهل هى متغايرة أم لا . وهل يقال فى كل صفة انها الذات أو غيرها أو لا يجمع بين نفيهما وانما يفرد كل نفي منهما أو لا يطلق شيء من ذلك .

فهذه الأمور لا اختصاص لها بهـذه المسألة مسألة التفضيل . ولا ريب أن التماثل أو التفاضل لا يعقل الا مع التعدد . وتعدد اسماء الله وصفاته وكلماته هو القول الذى عليه جمهور المسلمين وهو الذى كان عليه سلف الامة وأئمتها وهو الموافق لفطرة الله التى فطر عليها عباده (فلهذا) كان الناس يتخاطبون بموجب الفطرة والشرعة وان كانت لبعضهم أقوال أخر تنافى الفطرة والشرعة وتستلزم بطلان ما يقوله بمقتضي الفطرة والشرعة فان القرآن والسنة قد دلا على تعدد كلمات الله فى غـير موضع ، وقد قال تعالى (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفـد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) وقال تعالى (ولو أن مافى الارض من

شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله) وقد ذكرنا فى غير هذا الموضع قول السلف وانهم كانوا يثبتون لله كلمات لا نهاية لها وبينا النزاع في تعدد العـلوم والارادات وان كثيراً من أهل الـكلام يقول ما عليه جمهور الناس من تعـدد ذلك . وان الذين قالوا يريد جميع المرادات بارادة واحدة انما أخذوه عن ابن كُلاّب (وجمهور) العقلاء قالوا هذا معلوم الفساد بالضرورة حتي ان من فضلاء النظار من ينكر ان يذهب الى هـذا عاقل من الناس لأنه رآه ظاهر الفساد فى العقل ولم يعلم انه قاله طائفة من النظار وكذلك من جعل نفس إرادته هي رحمته وهي غضبه يكون قوله صلى الله عليه وسـلم اعوذ برضاك من سخطك معناه يكون مستعيذاً عنده بنفس الارادة من نفس الارادة وهذا ممتنع فانه ليس عنده للارادة صفة ثبوتية يستعاذ بها من أحد الوجهين باعتبار ذلك الوجه منها باعتبار الوجه الآخر بل الارادة عنده لها مجرد تعلق بالمخلوقات والتعلق أمر عدمى . وهذا بخلاف الاستعاذة به منه لان له سبحانه صفات متنوعة فيستعاذ به باعتبار ومنه باعتبار

(ومن) قال انه ذات لا صفة لها أو موجود مطلق لا يتصف بصفة ثبوتية فهذا يمتنع تحققه فى الخارج وانما يمكن تقدير هـذا في الذهن كما تقدر الممتنعات فضلا عن أن يكون ربا خالقا للمخلوقات كما قد بسط في موضـعه

(وهؤلاء) ألجأهم الى هذه الامور مضايقات الجهمية والمعتزلة لهم في مسائل الصفات فانهم صاروا يقولون لهم كلام الله هو الله أو غير الله إن قلتم هو غيره فما كان غير الله فهو مخلوق وان قلتم هو هو فهو مكابرة (وهذا) أول ما احتجوا به على الامام احمد في المحنة فان المعتصم لما قال لهم ناظروه قال له عبد الرحمن ابن اسحق يا أبا عبد الله ما تقول فى القرآن أو قال في كلام الله يعني أهو الله أو غيره . فقال له احمد ما تقول في علم الله أهو الله أو غيره فعارضه احمد بالعلم فسكت عبد الرحمن

(وهذا) من حسن معرفة أبي عبد الله بالمناظرة رحمه الله فان المبتدع الذى بني مذهبه على أصل فاسد متي ذكرت له الحق الذى عندك ابتداء أخذ يعارضك فيه لما قام في نفسه من الشبهة فينبغى اذا كان المناظر مدعياً ان الحق معه أن يبدأ بهدم ما عنده فاذا انكسر وطاب الحق فاعطه إياه والا فما دام معتقداً نقيض الحق لم يدخل الحق الى قلبه كاللوح الذى كتب فيه كلام باطل امحه أولا ثم اكتب فيه الحق وهؤلاء كان قصدهم الاحتجاج لبدعتهم فذكر لهم الامام احمد رحمه الله من المعارضة والنقض ما يبطلها . وقد تكلم الامام أحمد فى رده على الجهمية في جواب هـذا وبين أن لفظ الغير لم ينطق به الشرع لانفيا ولا اثباتا وحينئذ فلا يلزم أن يكون داخلا في لفظ الغير في كلام الشارع ولا غير داخل فلا يقوم دليل شرعى على انه مخلوق (وأيضا) فهو لفظ مجمل يراد بالغير ماهو منفصل عن الشيء ويراد بالغير مما ليس هو الشيء فلهذا لا يطلق القول لان كلام الله وعلم الله ونحو ذلك هو هو لان هذا باطل ولا يطلق أنه غيره لئلا يفهم أنه بائن عنه منفصل عنه وهذا الذى ذكره الامام أحمد عليه الحذاق من أئمة السنة فهؤلاء لا يطلقون انه هو ولا يطلقون أنه غيره ولا يقولون ليس هو هو ولا غيره فان هـذا أيضا اثبات قسم ثالث وهو خطأ ففرق بين ترك اطلاق اللفظين لما فى ذلك من الاجمال . وبين نفي مسمي اللفظين مطلقاً واثبات معني ثالث خارج عن مسمي اللفظين فجاء بعد هؤلاء أبو الحسن وكان أحذق ممن بعده فقال ننفى مفرداً لا مجموعا

(فنقول) مفردا ليست الصفة هي الموصوف . ونقول مفردا ليست غيره ولا يجمع بينهما فيقال لاهي هو ولاهى غيره لان الجمع بين النفى فيه من الايهام ماليس فى التفريق (وجاء)بعده أقوام فقالوا بل ننفى مجموعا فنقول لاهي هو ولا هى غيره (ثم) كثير من هؤلاء اذا بحثوا يقولون هذا المعنى أما أن يكون غيره فيتناقضون وسبب ذلك ان لفظ الغير مجمل يراد بالغير المباين المنفصل ويراد بالغير

ما ليس هو عين الشيء وقد يعبر عن الأول بان الغيرين ما جاز وجود أحدهما وعدمه أو ما جاز مفارقة أحدهما الآخر بزمان أو مكان أو وجود ويعبر عن الثانى بانه ما جاز العلم باحدهما مع عدم العلم بالآخر وبين هذا وهذا فرق ظاهر فصفات الرب اللازمة له لا تفارقه البتة فلا تكون غيراً بالمعني الأول ويجوز أن تعلم بعض الصفات دون بعض وتعلم الذات دون الصفة فتكون غيراً باعتبار الثاني ولهذا اطلق كثير من مثبتة الصفات عليها اغياراً للذات .

ومنهم من قال نقول انها غير الذات ولا نقول انها غير الله فان لفظ الذات لا يتضمن الصفات بخلاف اسم الله فانه يتناول الصفات ولهذا كان الصواب على قول أهل السنة أن لا يقال فى الصفات انها زائدة على مسمي اسم الله بل من قال ذلك فقد غلط عليهم (واذا قيل) هل هي زائدة على الذات أم لا كان الجواب ان الذات الموجودة فى نفس الامر مستلزمة للصفات فلا يمكن وجود الذات مجردة عن الصفات بل ولا يوجد شيء من الذوات مجردا عن جميع الصفات بل لفظ الذات تأنيث ذو ولفظ ذو مستلزم للاضافة وهذا اللفظ مولد وأصله أن يقال ذات علم ذات قدرة ذات سمع كما قال تعالى (فاتقو الله وأصلحوا ذات بينكم) ويقال فلانة ذات مال ذات جمال (ثم) لما علموا أن نفس الرب ذات علم وقدرة وسمع وبصر ردا على من نفي صفاتها عرفوا لفظ الذات وصار التعريف يقوم مقام الاضافة فحيث قيل لفظ الذات فهو ذات كذا . فالذات لا تكون الا ذات علم وقدرة ونحو ذلك من الصفات لفظا ومعني (وانما) يريد محققو أهل السنة بقولهم الصفات زائدة على الذات انها زائدة على ما أثبته نفاة الصفات من الذات فانهم أثبتوا ذاتا مجردة لا صفات لها فأثبت أهل السنة الصفات زائدة على ما أثبته هؤلاء . فهى زيادة في العلم والاعتقاد والخبر لا زيادة على نفس الله جل جلاله . وتقدست اسماؤه بل نفسه المقدسة متصفة بهذه الصفات لا يمكن أن تفارقها . فلا توجد الصفات بدون الذات ولا

الذات بدون الصفات. وهذه الامور مبسوطة فى غير هذا الموضع

(والمقصود) أن الاشعرى وغيره من الصفاتية الذين سلكوا مسلك ابن كلاب اذا قال أحدهم فى الصفات انها متماثلة فان هذا لا يقوله عاقل إذ المثلان ماسد أحدهما مسد الآخر وقام مقامه . والعلم ليس مثلا للقدرة ولا القدرة مثلا للارادة (وأما) الكلام فانه عنده شيء واحد والواحد يمتنع فيه تفاضل أو تماثل وفي الجملة فالذين يمنعون أن يكون كلام الله بعضه أفضل من بعض لهم مأخذان (أحدهما) ان صفات الرب لا يكون بعضها أفضل من بعض . وقد يعبرون عن ذلك بان القديم يتفاضل (والثاني) انه واحد والواحد لا يتصور فيه تفاضل ولا تماثل. وهذا على قول من يقول انه واحد بالعين وهؤلاء الذين يقولون انه واحد بالعين منهم من يجعله مع ذلك حروفا أو حروفا وأصواتا قديمة الاعيان ويقول هو مع ذلك شيء واحد كما يوجد في كلام طائفة من المتأخرين الذين أخذوا عن الكلابية أنه ليس له إلا إرادة واحدة وعلم واحد وقدرة واحدة وكلام واحد وان القرآن قديم. وأخذوا عن المعتزلة وغيرهم انه مجرد الحروف والاصوات والتزموا أن الحروف والاصوات قديمة الاعيان مع انها مترتبة في نفسها ترتبا ذاتيا فى الوجود أزلية لم يزل بعضها مقارنا لبعض وفرقوا بين ذات الشيء وبين وجوده في الخارج موافقة لمن يقول ذلك من المعتزلة وكثير من القائلين بقدمه وانه حروف وأصوات لا يقولون انه شيء واحد بل يجعلونه متعددا مع قدم القرآن وقدم أعيان الحروف والاصوات . والقول الآخر من يقول انه واحد بالعين إن القديم هو معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض كما قد بين حقيقة قولهم. وهذا هو القول المنسوب الى ابن كلاب والاشعري. وهذا القول أول من عرف انه قاله فى الاسلام ابن كلاب لم يسبقه اليه أحد من الصحابة ولا التابعين ولا غيرهم من أئمة المسلمين . مع كثرة ماتكلم الصحابة والتابعون فى كلام الله تعالى . ومع انه من أعظم أهم أمور الدين

الذي تتوفر الهمم على معرفته وذكره ومع تواتر نص الكتاب والسنة وآثار الصحابة على خلاف هذا القول. وكل من هذه الاقوال مما يدل الكتاب والسنة وآثار السلف على خلافه وكل منها مما اتفق جمهور العقلاء الذين يتصورونه على إن فساده معلوم بضرورة العقل ويجوز اتفاق طائفة من العقلاء على قول يعلم فساده بضرورة العقل اذا كان ذلك عن تواطيء كما يجوز اتفاقهم على الكذب تواطئا وأما بدون ذلك فلا يجوز

(فالمذهب) الذى تقلده بعض الناس عن بعض كقول النصارى والرافضة والجهمية والدهرية ونحو ذلك يجوز أن يكون فيه ما يعلم فساده بضرورة العقل وإن كان طائفة من العقلاء قالوه على هذا الوجه فاما أن يقولوه من غير تواطيء فهذا لا يقع وأكثر المتقلدين للاقوال الفاسدة لا يتصورونها تصوراً تاما حتى يكون تصورها التام موجباً للعلم بفسادها (ثم) اذا اشتهر القول عند طائفة لم يعلموا غيره عن أهل السنة ظنوا أنه قول أهل السنة (ولما) كان المشهور عند المسلمين إن أهل السنة لا يقولون القرآن مخلوق صار كل من رأى طائفة تنكر قول من يقول القرآن مخلوق يظن ان كل ما قالته فى هذا الباب هو قول السلف وأئمة السنة والذين قالوا ان القرآن غير مخلوق بل قائم بذات الله ووافقوا السلف والائمة في هذا لما ظهرت محنة الجهمية وثبت فيها الامام احمد الذي أيد الله به السنة ونصر السنة صار شعار اهل السنة أن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن الله يُرى في الآخرة فكل من أنكر ذلك فهو من أهل البدعة في اللسان العام . فكثر حينئذ من يوافق أهل السنة والحديث على ذلك وان كان لا يعرف حقيقة قولهم بل معه أصول من أصول أهل البدع الجهمية يريد أن يجمع بينها وبين قول أهل السنة (وكما) يريد المتفلسف أن يجمع بين أقوال المتفلسفة المخالفين للرسل وبين ما جاءت به الرسل (فلهذا)

صار المنتسبون الى السنة الذين يقولون القرآن كلام الله غير مخلوق لهم أقوال (أحدها) قول من يقول انه قديم العين . وأن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ولا يتكلم بكلام بعد كلام . ثم هؤلاء على قولين . منهم من يقول ذلك القديم هو معني واحد لازم لذات الله أبداً أو خمسة معان . ومنهم من يقول بل هو حروف وأصوات قديمة الاعيان لازمة لذات الله أبدا الثالث قول من يقول بل الرب في أزله لم يكن الكلام ممكنا له كما لم يكن الفعل ممكناً له عندهم لان وجود الكلام والفعل لا يكون الا بمشيئته واختياره ووجود ما يكون بالمشيئة والاختيار محال عندهم دوامه . ثم المشهور عن هؤلاء قول من يقول تكلم فيما لا يزال بحروف وأصوات تقوم بذاته كما يقوله طوائف متعددة منهم الكرامية وبعض الناس يذكر ما يقتضى ان الكلام الذي قام به شيئاً بعد شيء انما هو علوم وإرادات وابو عبد الله الرازى يميل الى هذا في بعض كتبه.[1] والخامس قول من يقول لم يزل متكلما كيف شاء . هذا هو المعروف عن السلف وأئمة السنة مثل عبد الله ابن المبارك واحمد بن حنبل وسائر أهل الحديث والسنة . ثم هؤلاء منهم من

(١) — قوله — والخامس هكذا فى الاصل وقد سقط من الأقوال الثاني والرابع وقد ذكر الشيخ فى كتابه منهاج السنة عند الكلام على هذه المسألة ان أقوال العلماء بلغت نهايا الى سبعة أقوال وجعل القول الأول هنا ثلاثة أقوال ثانياً وثالثاً ورابعاً والقول الثالث هنا خامساً وسادساً والخامس هنا سابعاً والقول الثاني الذي سقط هنا قولا أول وهو ان كلام الله ما يفيض على النفوس من المعاني التى تفيض اما من العقل الفعال واما من غيره ونسب هذا القول الي الصابئة والمتفلسفة الموافقين لهم كابن سينا وأمثاله ومن دخل مع هؤلاء من متصوفة الفلاسفة ومتكلميهم واصحاب وحدة الوجود وعلى ما ذكره في منهاج السنة فالذي سقط هنا هو القول الثانى الذي جعله هناك قولا أول وأما الرابع فانما سقط هنا عدده لانفسه وانما جعل هذا القول هنا ثالثاً ورابعاً وهناك خامساً وسادساً لاشتماله على قولين الاول ان كلامه تعالي حروف وأصوات الثاني انه حادث قائم بذاته تعالى ومن هذا تعلم ان ماذكره في المنهاج لا يزيد على ماذكره هنا اه مصححه

من يقول لم يزل متكلما لا يسكت بل لا يزال متكلما بمشيئته وقدرته وهذا هو الذي جعله ابن حامد المشهور من مذهب احمد وأصحابه مع انه حكى انه لا يختلف قول احمد انه لم يزل متكلما كيف شاء وكما شاء . والقول الثاني انه يتكلم اذا شاء ويسكت اذا شاء . وهذا القول حكاه أبو بكر عبد العزيز عن طائفة من أصحاب احمد . وكذلك خرجه ابن حامد قولا في المذهب مع ذكره انه لم يختلف مذهبه في أنه لم يزل متكلما كيف شاء وكما شاء وأنه لا يجوز أن يكون لم يزل ساكتا ثم صار متكلما كما يقوله الكرامية . وهذه الاقوال وتوابعها مبسوطة في موضع آخر

(والمقصود) هنا أن الذين قالوا كلام الله غير مخلوق تنازعوا بعد ذلك على هذه الاقوال مع أن أكثر الذين قالوا بعض هذه الاقوال لا يعلمون ما قال غيرهم بل غاية ما عند أئمتهم المصنفين في هذا الباب معرفة قولين أو ثلاثة أو أربعة من هذه الاقوال . كقول المعتزلة والكلابية والسالمية والكرامية ولا يعرفون ان في الاسلام من قال سوي ذلك . ويصنف أحدهم كتاباً كبيراً في مقالات الاسلاميين وفي الملل والنحل ويذكر عامة الاقوال المبتدعة في هذا الباب . والقول المأثور عن السلف والائمة لا يعرفه ولا ينقله . مع ان الكتاب والسنة مع المعقول الصريح لا يدل إلا عليه وكل ما سواه أقوال متناقضة كما بسط في موضعه

(والقصد) هنا إن من كان عنده ان قول المعتزلة مثلا أو قول المعتزلة والكرامية أو قول هؤلاء وقول الكلابية أو قول هؤلاء وقول السالمية هو باطل من أقوال أهل البدع لم يبق عنده قول أهل السنة الا القول الآخر الذى هو أيضاً من الاقوال المبتدعة المخالفة لصريح المعقول وصحيح المنقول . فيفرع على ذلك القول ما يضيفه الى السنة ثم إذا تدبر نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف وجدها تخالف ذلك القول أصلا وفرعا كما وقع لمن أنكر فضل فاتحة الكتاب وآية الكرسي وقل هو الله أحد على غيرها من القرآن . فان عمدتهم

ما قدمته من الاصل الفاسد . أما كون الكلام واحداً فلا يتصور فيه تفاضل ولا تماثل ولا تعدد . وأما كون صفات الرب لا تتفاضل وربما قالوا القديم لا يتفاضل وهو من جنس قول الجهمية والمعتزلة ونحوهم القديم لا يتعدد . وهذا لفظ مجمل فان القديم اذا أريد به رب العالمين فرب العالمين إله واحد لا شريك له واذا أريد به صفاته فمن قال ان صفات الرب لا تتعدد فهو يقول العلم هو القدرة والقدرة هي الارادة والسمع والبصر هو العلم . وقد يقول بعضهم أيضاً العلم هو الكلام ويقول آخرون العلم والقدرة هو الارادة . ثم قد يقولون إن الصفة هي الموصوف فالعلم هو العالم والقدرة هي القادر .

(وهذه) الأقوال صرح بها نفات الصفات من الفلاسفة والجهمية ونحوهم كما حكيت ألفاظهم في غير هذا الموضع . ومعلوم ان في هذه الأقوال من مخالفة المعقول الصريح والمنقول الصحيح بل مخالفة المعلوم بالاضطرار للعقلاء وللمعلوم بالاضطرار من دين الاسلام ودين الرسل ما يبين انها في غاية الفساد شرعا وعقلا ثم ان هؤلاء تأولوا نصوص الكتاب والسنة بتأويلات باطلة (منهم) من قال المراد بكونه أعظم وأفضل وخيرا كونه عظيما في نفسه . وامتنع هؤلاء من اجراء التفضيل عليه . وحكى هذا عن الاشعري وابن الباقلاني وجماعة غيرهما . ومعلوم ان من تدبر الفاظ الكتاب والسنة تبين له أنها لا تحتمل هذا المعنى بل هو من نوع القرمطة . فان الله تعالى يقول (نزل أحسن الحديث) (وقال) النبي صلى الله عليه وسلم أتدري أي آية معك فى كتاب الله أعظم (وقال) لاعلمنك سورة لم ينزل فى التوراة ولا فى الانجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها الى غير ذلك مما تقدم ذكره (ومنهم) من قال بل المراد بقوله خير منها أى خير منها لكم أى اكثر ثوابا أو أقل تعبا. وقال ما دل على ان بعضه أفضل من بعض فليس هو تفضيلا لنفس الكلام بل لمتعلقه وهو أن تلاوة هذا والعمل به يحصل

به من الاجر أكثر مما يحصل بالآخر (فيقال) لهؤلاء ما ذكرتموه حجة عليكم مع ما فيه من مخالفة النص وذلك إن كون الثواب على أحد القولين أو الفعلين أكثر منه على الثاني انما كان لانه في نفسه افضل ولهذا انما تنطق النصوص بفضل القول والعمل في نفسه كما قد سئل النبي صلى الله عليه وسلم غير مرة أي العمل افضل فيجيب بتفضيل عمل على عمل وذلك مستلزم لرجحان ثوابه (أما رجحان الثواب) مع تماثل العملين فهذا مخالف للشرع والعقل وكذلك الكلام (ففي) صحيح مسلم عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. فأخبر انها أفضل الكلام بعد القرآن مع كونها من القرآن ففضل نفس هذه الأقوال بعد القرآن على سواها (وكذلك) في صحيح مسلم انه سئل أي الكلام أفضل فقال ما اصطفى الله للملائكة سبحان الله وبحمده (وفي الموطأ) وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . فأخبر ان هذا الكلام أفضل ما قاله هو والنبيون من قبله (وفي سنن) ابن ماجه عنه انه قال أفضل الذكر لا إله الا الله وأفضل الدعاء الحمد لله وقد رواه ابن أبي الدنيا (وفى الصحيحين) انه قال الايمان بضع وستون أو وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله الا الله ومثل هذا كثير فى النصوص بفضل العمل على العمل والقول على القول . ويعلم من ذلك فضل ثواب أحدهما على الآخر . أما تفضيل الثواب بدون تفضيل نفس القول والعمل فلم يرد به نقل . ولا يقتضيه عقل . فانه اذا كان القولان متماثلين من كل وجه . أو العملان متماثلين من وجه . كان جعل ثواب أحدهما أعظم من ثواب الآخر ترجيحاً لاحد المتماثلين على الآخر بلا مرجح . وهذا أصل قول القدرية والجهمية الذين يقولون ان القادر يرجح أحد مقدوريه بلا مرجح

وظنوا انهم بهذا الاصل ينصرون الاسلام فلا للاسلام نصروا ولا لعدوه كسروا
(بل) تسلط عليهم سلف الأمة وأئمتها بالتبديع والتضليل . والتكفير والتجهيل
وتسلط عليهم خصومهم الدهرية وغيرهم بالزامهم مخالفة العقول . وجعلوا ذلك
ذريعة الي الزيادة في مخالفة المشروع والمعقول كما جري للملحدين مع المبتدعين
(وأيضاً) فقول القائل انه ليس بعض ذلك خيراً من بعض بل بعضه
أكثر ثواباً . ردٌّ لخبر الله الصريح فان الله يقول (نأت بخير منها أو مثلها)
فكيف يقال ليس بعضه خيراً من بعض واذا كان الجميع متماثلا في نفسه امتنع
أن يكون فيه شيء خيراً من شيء وكون معنى الخير أكثر ثواباً مع كونه متماثلا
في نفسه أمر لا يدل عليه اللفظ حقيقة ولا مجازاً فلا يجوز حمله عليه فانه لا يعرف
قط أن يقال هذا خير من هذا وأفضل من هذا مع تساوى الذاتين بصفاتهما
من كل وجه . بل لا بدّ مع اطلاق هذه العبارة من التفاضل ولو ببعض الصفات
فاما اذا قدر ان مختاراً جعل لأحدهما مع التماثل ما ليس للآخر مع استوائهما
بصفاتهما من كل وجه . فهذا لا يعقل وجوده ولو عقل لم يقل ان هذا خير من
هذا أو أفضل لامر لا يتصف به أحدهما البتة . وأيضا (فى) الحديث الصحيح
أنه قال فى الفاتحة لم ينزل فى التوراة ولا في الانجيل ولا في القرآن مثلها . فقد
صرح الرسول بأن الله لم ينزل لها مثلا فمن قال ان كل ما نزل من كلام الله فهو
مثل لها من كل وجه فقد ناقض الرسول في خبره . وأيضا فقد تقدم قوله (أحسن
الحديث) ومع تماثل كل حديث لله فليس القرآن أحسن من التوراة والانجيل .
وكذلك تقدم ما خص الله به القرآن من الأحكام

فان قيل نحن نسلم لكم أن الله خص بعض كلامه من الثواب والاحكام
بما لا يشركه فيه غيره لكن هذا عندنا بمحض مشيئته لا لاختصاص ذلك
الكلام بوصف امتاز به عن الآخر . قيل أولا هذا مخالف لصريح نصوص

الكتاب والسنة واجماع سلف الأمة مع مخالفته لصريح المعقول . ثم هذا مبني
على أصل الجهمية والقدرية . وهو ان القادر المختار يرجح أحد المتماثلين على الآخر
بلا مرجح . وهؤلاء لما جوزوا هذا قالوا إن الرب لم يزل معطلا وما كان يمكن
في الازل أن يتكلم ولا أن يفعل . ثم صار الكلام والفعل ممكنا من غير حدوث شئ
اقتضي انتقالهما من الامتناع الى الامكان . وقالوا ان القادر المرجح يرجح بلا
مرجح (ثم قالت الجهمية) والعبد ليس بقادر فى الحقيقة فلا يرجح شيئاً بل الله
هو الفاعل لفعله وفعله هو نفس فعل الرب (وقالت القدرية) العبد قادر تام القدرة
يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا سبب حادث ولا حاجة الى أن يحدث الله
ما به يختص به فعل أحدهما بل هو مع أن نسبته الي الضدين الايمان والكفر
سواء يرجح أحدهما بلا مرجح لا من الله ولا من العبد . ولا يفتقر الى اعانة الله
ولا الي أن يجعله شائيا ولا يجعله يقيم الصلاة ولا يجعله مسلما . ومعلوم بالعقول
خلاف هذا والله تعالي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن
(لكن) المدح في هذا الكلام معناه انه مطلق المشيئة لا معوّق له إذا أراد
شيئاً (كما قال) النبي صلى الله عليه وسلم لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لى ان شئت اللهم
ارحمنى إن شئت ولكن ليعزم المسألة فان الله لا مكره له . فبين صلى الله عليه
وسلم انه لا يفعل إلا بمشيئته ليس له مكره حتي يقال له افعل ان شئت . ولا
يفعل ان لم يشأ . فهو سبحانه اذا أراد شيئاً كان قادرا عليه لا يمنعه منه مانع لا يعني
بذلك أنه يفعل لمجرد مشيئة ليس معها حكمة بل يفعل عندهم ما وجود فعله وعدمه
بالنسبة اليه سواء من كل وجه . فان هذا ليس بمدح بل المعقول من هذا انه صفة
ذم فمن فعل لمجرد ارادته الفعل من غير حكمة لفعله ولا تضمن غاية مجردة كان أن
لا يفعل خيراً له (وقد) ذم الله سبحانه في كتابه من نسبه الى هذا فقال تعالى (وما
خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من

النار) وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) . قال المفسرون العبث أن يعمل عملا لا لحكمة وهو جنس من اللعب . وقال (وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) . وقال (أيحسب الانسان أن يترك سدى) قال المفسرون وأهل اللغة . السدى المهمل الذي لا يؤمر ولا ينهى كالذى يترك الابل سدى مهملة . وقال تعالى (وهو الذي خلق السموات والارض بالحق ويوم يقول كن فيكون) وقال تعالى (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وان الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل ان ربك هو الخلاق العليم) (وقد) بين سبحانه الفرق بين ما أمر به ومانهي عنه وبين من يحمده ويكرمه من أوليائه . ومن يذمه ويعاقبه من أعدائه . وإنهم مختلفون لا يجوز التسوية بينهما . وجعل خلاف ذلك من المنكر الذي لا مساغ له . فقال تعالي (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون) وقال (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) وقال تعالى (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) . (فبين) ان هذا الحكم سيئ فى نفسه ليس للحكم به مساوياً للحكم بالتفاضل . ثم قال (وخلق الله السموات والارض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) فأخبر انه خلق الخلق ليجزى كل نفس بما كسبت . وانه لا يظلم أحدا فينقص من حسناته شيئاً بل كما قال (ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا) (وقد) نزه نفسه فى غير موضع من القرآن أن يظلم أحداً من خلقه فلا يؤتيه أجره أو يحمل عليه ذنب غيره . فقال تعالى (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) وقال تعالى (لا تختصموا لدى وقد قدمت اليكم بالوعيد ما يبدل القول لديّ وما أنا بظلام للعبيد) وقال تعالى (تلك من أنباء

القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شئ لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب) (وفي) الحديث الصحيح الالهي يا عبادي انى حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا . وما تزعمه القدرية من أن تفضيل بعض عباده على بعض بفضله واحسانه من باب الظلم جهل منهم وكذلك جزاؤهم بأعمالهم التى جرى بها القدر ليس بظلم فان الواحد من الناس اذا عاقبه غيره بسيئاته وانتصف للمظلوم من الظالم لم يكن ذلك ظالما منه باتفاق العقلاء بل ذلك أمر محمود منه ولا يقول أحد ان الظالم معذور لاجل القدر . فرب العالمين اذا أنصف بعض عباده من بعض وأخذ للمظلومين حقهم من الظالمين . كيف يكون ذلك ظالما منه لأجل القدر وكذلك الواحد من العباد إذا وضع كل شئ موضعه فجعل الطيب مع الطيب فى المكان المناسب له وجعل الخبيث مع الخبيث فى المكان المناسب له كان ذلك عدلا منه وحكمة فرب العالمين اذا وضع كل شيء موضعه ولم يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض ولم يجعل المتقين كالفجار ولا المسلمين كالمجرمين . والجنة طيبة لا يصلح أن يدخلها الا طيب . ولهذا لا يدخلها أحد إلا بعد القصاص الذى ينظفهم من الخبث كما ثبت في الصحيح عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم ان المؤمنين اذا عبروا الجسر وهو الصراط المنصوب على متن جهنم فانهم يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار . فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا فاذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة . وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع (والمقصود) هنا ان ما يقوله القدرية من الظلم والعدل الذى يقيسون به الرب على عباده من بدعهم التى ضلوا بها وخالفوا بها الكتاب والسنة واجماع سلف الأمة . وكذلك من قابلهم فنفي حكمة الرب الثابتة فى خلقه وأمره وما كتبه على نفسه من الرحمة وما حرمه على نفسه من الظلم وما جعله للمخلوقات

والمشروعات من الاسباب التي شهد بها النص مع العقل والحس واتفق عليها سلف الأمة وأئمة الدين . كقوله تعالى (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيي به الأرض بعد موتها) وقوله تعالى (فانزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات) ونحو ذلك فان هذه الاقاويل أصلها مأخوذ من الجهم بن صفوان امام غلاة المجبرة . وكان ينكر رحمة الرب . ويخرج الى الجذمى فيقول أرحم الراحمين يفعل مثل هذا . يريد بذلك انه مائم الا ارادة رجح بها أحد المتماثلين بلا مرجح لا لحكمة ولا رحمة . ولهذا كان الذين وافقوه على قوله من المنتسبين الى مذهب أهل السنة والجماعة يتناقضون لانهم اذا خاضوا في الشرع احتاجوا أن يسلكوا مسالك أئمة الدين في اثبات محاسن الشريعة وما فيها من الأمر بمصالح العباد وما ينفعهم من النهي عن مفاسدهم وما يضرهم وان الرسول الذي بعث بها بعث رحمة كما قال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وقد وصفه الله تعالى بقوله (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبيّ الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل . يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) فأخبر انه يأمر بما هو معروف وينهي عما هو منكر ويحل ما هو طيب ويحرم ما هو خبيث ولو كان المعروف لا معنى له الا المأمور به والمنكر لا معني له إلا ما حرم لكان هذا كقول القائل يأمرهم بما يأمرهم وينهاهم عما ينهاهم ويحل لهم ما أحل لهم ويحرم عليهم ما حرم عليهم وهذا كلام لا فائدة فيه فضلا عن أن يكون فيه تفضيل له على غيره . ومعلوم أن كل من أمر بأمر يوصف بذلك . وكل نبي بعث فهذه حاله . وقد قال تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) فعلم ان الطيب وصف للعين . وان الله قد يحرمها مع ذلك عقوبة للعباد كما قال تعالى لما ذكر ما حرمه على بني اسرائيل (ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون)

وقال تعالى (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات) فلو كان معنى الطيب هو ما أحل كان الكلام لا فائدة فيه . فعلم ان الطيب والخبيث وصف قائم بالاعيان وليس المراد به مجرد التذاذ الأكل فان الانسان قد يلتذ بما يضره من السموم وما يحميه الطبيب منه ولا المراد به التذاذ طائفة من الامم لا العرب ولا كون العرب تعودته فان مجرد كون أمة من الامم تعودت أكله وطاب لها أو كرهته لكونه ليس في بلادها لا يوجب أن يحرم الله على جميع المؤمنين ما لم تعتده طباع هؤلاء . ولا أن يحل لجميع المؤمنين ما تعودوه . كيف وقد كانت العرب قد اعتادت أكل الدم والميتة وغير ذلك وقد حرمه الله تعالى . وقد قيل لبعض العرب ما تأكلون قال ما دب ودرج إلا أم حبين فقال ليهن أم حبين العافية . ونفس قريش كانوا يأكلون خبائث حرمها الله وكانوا يعافون مطاعم لم يحرمها الله . وفي الصحيحين عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قدم له لحم ضب فرفع يده ولم يأكل فقيل أحرام هو يا رسول الله قال لا ولكنه لم يكن بأرض قومي فاجدني أعافه (فعلم) ان كراهة قريش وغيرها لطعام من الأطعمة لا يكون موجبا لتحريمه على المؤمنين من سائر العرب والعجم . وأيضا فان النبي صلي الله عليه وسلم وأصحابه لم يحرم أحد منهم ما كرهته العرب ولم يبح كل ما أكلته العرب . وقوله تعالى (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) إخبار عنه انه سيفعل ذلك . فأحل النبي صلى الله عليه وسلم الطيبات وحرم الخبائث مثل كل ذى ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير فانها عادية باغية فاذا اكلها الناس والغاذي شبيه بالمغتذي صار في اخلاقهم شوب من اخلاق هذه البهائم وهو البغي والعدوان كما حرم الدم المسفوح لانه مجمع قوي النفس الشهوية الغضبية وزيادته توجب طغيان هذه القوي وهو مجري الشيطان من البدن . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم . ولهذا كان شهر رمضان إذا دخل

صفدت الشياطين لان الصوم جنة فالطيبات التي أباحها هي المطاعم النافعة للعقول والاخلاق والخبائث هي الضارة في العقول والاخلاق . كما ان الخمر أم الخبائث لانها تفسد العقول والأخلاق فأباح الله الطيبات للمتقين التي يستعينون بها على عبادة ربهم التي خلقوا لها . وحرم عليهم الخبائث التي تضرهم في المقصود الذي خلقوا له وأمرهم مع أكلها بالشكر ونهاهم عن تحريمها فمن أكلها ولم يشكر ترك ما أمر الله به واستحق العقوبة . ومن حرمها كالرهبان فقد تعدي حدود الله فاستحق العقوبة . قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون) وفي الحديث الصحيح عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قال ان الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها . وفي حديث آخر الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر . وقال تعالى (لتسألن يومئذ عن النعيم) أى عن شكره فانه لا يبيح شيئاً ويعاقب من فعله . ولكن يسأله عن الواجب الذي أوجبه معه وعما حرمه عليه هل فرط بترك مأمور أو فعل محظور . كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) فنهاهم عن تحريم الطيبات كما كان طائفة من الصحابة قد عزموا على الترهب فانزل الله هذه الآية (وفي الصحيحين) إن رجالا من الصحابة قال أحدهم أما أنا فأصوم لا أفطر . وقال آخر أما أنا فأقوم لا أنام . وقال آخر أما أنا فلا أقرب النساء . وقال آخر أما أنا فلا آكل اللحم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا . لكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني . ولبسط هذه الامور موضع آخر

(والمقصود) هنا ان الله بين في كتابه وعلى لسان رسوله حكمته في خلقه وأمره كقوله (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا) فعلل التحريم

بانها فاحشة فعلم بانها فاحشة بدون النهي وان ذلك علة للنهي عنها . وقوله (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء) فذكر براءته من هذا على وجه المدح له بذلك وتنزيهه عن ذلك . فدل على ان من الامور ما لا يجوز أن يضاف الى الله الامر به ليست الاشياء كلها مستوية في أنفسها ولا عنده وانه لا يخصص المأمور على المحظور لمجرد التحكم بل يخصص المأمور بالأمر والمحظور بالحظر لما اقتضته حكمته . وقد تدبرت عامة ما رأيته من كلام السلف مع كثرة البحث عنه وكثرت ما رأيته من ذلك هل كان الصحابة والتابعون لهم باحسان أو أحد منهم على ما ذكرته من هذه الاقوال التي وجدتها في كتب أهل الكلام من الجهمية والقدرية ومن تلقي ذلك عنهم . مثل دعوى الجهمية ان الامور المتماثلة يأمر الله بأحدها وينهى عن الآخر لا لسبب ولا لحكمة . أو أن الاقوال المتماثلة والاعمال المتماثلة من كل وجه يجعل الله ثواب بعضها اكثر من الآخر بلا سبب ولا حكمة ونحو ذلك مما يقولونه . كقولهم ان كلام الله كله متماثل وان كان الآخر في مثله أعظم (1) فما وجدت في كلام السلف ما يوافق ذلك بل يصرحون بالحكم والاسباب وبيان ما في المأمور به من الصفات الحسنة المناسبة للأمر به . وما في النهى عنه من الصفات السيئة المناسبة للنهي عنه . ومن تفضيل بعض الاقوال والاعمال في نفسها على بعض . ولم أر عن أحد منهم قط انه خالف النصوص الدالة على ذلك ولا استشكل ذلك ولا تأوله على غير مفهومه مع انه يوجد عنهم في كثير من الآيات والأحاديث استشكال واشتباه وتفسيرها على أقوال مختلفة قد يكون بعضها خطأ والصواب هو القول الآخر . وما وجدتهم في مثل قوله تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني) وقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي أي آية في كتاب الله أعظم . وقوله في الفاتحة

(1) ـ هكذا ـ في الاصل وصوابه وان كان الأجر في بعضه أعظم اه مصححه

لم ينزل فى التوراة ولا فى الانجيل ولا فى القرآن مثلها ونحو ذلك الا مقرين لذلك قائلين بموجبه والنبي صلى الله عليه وسلم سأل أبيًا. أي آية فى كتاب الله أعظم فاجابه أبي بانها آية الكرسي فضرب بيده في صدره وقال ليهنك العلم أبا المنذر . ولم يستشكل أبيّ ولا غيره السؤال عن كون بعض القرآن أعظم من بعض بل شهد النبي صلى الله عليه وسلم بالعلم لمن عرف فضل بعضه على بعض وعرف أفضل الآيات. وكذلك قوله تعالى (ما ننسخ من آية أو ننسأها) وما رأيتهم تنازعوا في تفسير خير منها. فان هذه الآية فيها قراءتان مشهورتان قراءة الاكثرين أو ننسها من أنساه ينسيه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو أو ننسأها بالهمز من نسأه ينسأه . فالاول من النسيان . والثاني من نسأ إذا أخر . قال أهل اللغة نسأته نسأ إذا أخرته وكذلك أنسأته يقال نسأته البيع وأنسأته . قال الاصمعي أنسأ الله في أجله ونسأ في أجله بمعنى . ومن هذه المادة بيع النسيئة. ومن كلام العرب من أراد النساء ولا نساء فليبكر الغداء وليخفف الرداء وليقل من غشيان النساء . فأما القراءة الاولى فمعناها ظاهر عند أكثر المفسرين قالوا المراد به ما أنساه الله من القرآن كما جاءت الآثار بذلك فان ما رفع من القرآن إما أن يكون رفعا شرعيا بازالته من القلوب وهو الانساء فأخبر تعالى ان ما ينسخه أو ينسيه فانه يأتي بخير منه أو مثله بين ذلك فضله ورحمته لعباده المؤمنين فانه قال قبل ذلك (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم)فنهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في سوء أدبهم على الرسول وعلى ما جاء به وأخبر أنهم لحسدهم ما يودون ان الله ينزل عليه شيئًا من الكتاب والحكمة ثم أخبر بنعمته على المؤمنين فانه قد كان بعض القرآن ينسخ وبعضه ينسي كما جاءت الآثار بذلك وما أنساه سبحانه هو

مما نسخ حكمه وتلاوته بخلاف المنسوخ الذى يتلى وقد نسخ ما نسخ من حكمه أو نسخ تلاوته ولم ينس وفي النسخ والانساء نقص ما أنزله على عباده فبين سبحانه انه لا نقص في ذلك بل كل ما ينسخ أو ينسى فان الله يأتي بخير منه أو بمثله فلا يزال المؤمنون فى نعمة من الله لا تنقص بل تزيد فانه اذا أتى بخير منها زادت النعمة وان أتى بمثلها كانت النعمة باقية وقال تعالى (أو ننسها) فأضاف الانساء اليه فان هذا الانساء ليس مذموما بخلاف نسيان ما يجب حفظه فانه مذموم فان هذا إنساء لما رفعه الله وأما نسيان ما أمر بحفظه فمذموم قال تعالى (كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسي) وهذا النسيان وان كان متضمنا لترك العمل بها مع حفظها فاذا نسيت الآيات بالكلية حتي لا يعرف ما فيها كان ذلك أبلغ في ترك العمل بها فكان هذا مذموما . قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذى فى السنن من قرأ القرآن ثم نسيه لقى الله وهو أجذم . ولهذا كره النبي صلى الله عليه وسلم أن يضيف الانسان النسيان الى نفسه (فقال) فى الحديث المتفق عليه بئس مالا حدهم أن يقول نسيت آية كيت وكيت بل هو أنسي استذكروا القرآن فلهو أشد تفلتا من صدور الرجال من النعم من عقلها . ثم منهم من جعل ما ننسخ من آية هو ما ترك تلاوته ورسمه ونسخ حكمه وما أنسي هو ما رفع فلا يتلى . ومنهم من أدخل فى الاول ما نسخت تلاوته وان كان محفوظا فالاول قول مجاهد وأصحاب عبد الله بن مسعود وروى الناس بالاسانيد الثابتة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قوله ما ننسخ من آية قال نثبت خطها ونبدل حكمها قال وهو قول أصحاب عبد الله بن مسعود . أو ننسها أى نمحوها فان ما نسي لم يترك . وروى ابن أبي حاتم باسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال كان مما ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحى بالليل وينساه بالنهار فأنزل الله (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) وكذلك روى عن سعد بن أبى وقاص ومحمد بن كعب وقتادة وعكرمة وكان سعد بن أبى

وقاص يقرأها أو تنسها بالخطاب أي تنسها أنت يامحمد وتلا قوله (سنقرئك فلا تنسي) . وقوله (واذكر ربك اذا نسيت) . وقد جاءت الآثار بأن أحدهم كان يحفظ قرآنا ثم ينساه . ويذكرون ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فيقول انه رفع مثل ماصح من حديث الزهري حدثني أبو امامة بن سهل بن حنيف في مجلس سعيد بن المسيب أن رجلا كان معه سور فقام يقرأها من الليل فلم يقدر عليها . وقام آخر يقرأها فلم يقدر عليها وقام آخر يقرأها فلم يقدر عليها . فاصبحوا فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم ذهبت البارحة لأقرأ سورة كذا وكذا فلم أقدر عليها . وقال الآخر ماجئت الا لذلك . وقال الآخر ماجئت الا لذلك . وقال الآخر وأنا يارسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها نسخت البارحة . وقوله أو ننسأها النسأ بمعني التأخير وفيه قولان للسلف القول الأول يروى عن طائفة . قال السدي ما ننسخ من آية قال ننسخها قبضها أو ننسأها فنتركها لا ننسخها نأت بخير من الذي نسخناه أو مثل الذي تركناه . وكذلك في تفسير الوالبي عن ابن عباس ماننسخ من آية أو ننسأها يقول مانبدل من آية أو نتركها فلا نرفعها من عندكم نأت بخير منها أومثلها روى ذلك عن الربيع بن أنس . ومن الناس من فسر بهذا المعني القراءة الاولى فقالوا معنى ننسها نتركها عندكم فان النسيان هو الترك . وقال الازهري ننسها نأمر بتركها يقال أنسيت الشئ . وأنشد

إني على عتبة أقضيها * لست بناسيها ولا منسيها

أى ولا آمر بتركها (والقول الثالث) نؤخرها عن العمل بها بنسخنا اياها والصواب القول الاوسط روى ابن أبي حاتم باسناده عن ابن عباس قال خطبنا عمر رضي الله عنه فقال يقول الله ماننسخ من آية أو ننسأها أى نؤخرها . وباسناده المعروف عن أبى العالية ما ننسخ من آية فلا يعمل بها أو ننسأها أي نرجيها عندنا

وفي لفظ عن أبي العالية نؤخرها عندنا . وعن عطاء نؤخرها (وقد) ذكر قول ثالث عن السلف . وهو قول رابع ان المعنى ماننسخ من آية وهو ماانزلناه اليكم ولو نرفعه أو ننساها أي نؤخر تنزيله فلا ننزله . ونقل هذا بعضهم عن سعيد ابن المسيب وعطاء أما ماننسخ من آية فهو ماقد نزل من القرآن جعلاه من النسخة أو ننسأها أى نؤخرها فلا يكون وهو مالم ينزل . وهذا فيه نظر فان ابن ابي حاتم روي بالاسناد الثابت عن عطاء ما ننسخ من آية أما ما ننسخ فهو ما ترك من القرآن بالكاف وكأنه تصحف على من ظنه نزل من النزول فان لفظ ترك فيه إيهام . ولذلك قال ابن أبي حاتم يعني ترك لم ينزل على محمد وليس مراد عطاء هذا وإنما مراده انه ترك مكتوبا متلوا ونسخ حكمه كما تقدم عن غيره وأما أنساه هوما أخره لم ينزله وسعيد وعطاء من أعلم التابعين لا يخفى عليهما هذا . وقد قرأ ابن عامر ماننسخ من آية وزعم أبو حاتم انه غلط وليس كما قال بل فسرها بعضهم بهذا المعنى فقال ماننسخ نجعلكم تنسخونها كما يقال أكتبته هذا وقيل انسخ جعله منسوخاً كما يقال قبره اذا أراد دفنه وأقبره أي جعل له قبرا وطرده اذا نفاه وأطرده اذا جعله طريدا . وهذا أشبه بقراءة الجمهور . والصواب قول من فسر أو ننسأها أي نؤخرها عندنا فلا ننزلها . والمعنى ان ما ننسخه من الآيات التي أنزلناها أو نؤخر نزوله من الآيات التي لم ننزلها بعد (نأت بخير منها أو مثلها) فكما انه يعوضهم من المرفوع يعوضهم من المنظر الذى لم ينزله بعد الى أن ينزله فان الحكمة اقتضت تأخير نزوله فيعوضهم بمثله أو خير منه في ذلك الوقت الى أن يجيء وقت نزوله فينزله أيضاً مع ما تقدم ويكون ماعوضه مثله أو خيراً منه قبل نزوله . (وأما) ما أنزله اليهم ولم ينسخه فهذا لا يحتاج الى بدل ولو كان كل مالم ينسخه الله يأت بخير منه أو مثله لزم انزال مالا نهاية له . وكذلك إن قدر ان المراد يؤخر نسخه الى وقت ثم ينسخه فانه مادام عندهم لم يحتج الى بدل يكون

مثله أو خيراً منه وانما البدل لما ليس عندهم مما أنسوه أوأخر نزوله فلم ينزله بعد
ولهذا لم يجعل البدل لكل مالم ينزله بل لما نسأه فاخر نزوله إذ لو كان كل مالم
ينزل يكون له بدل لزم انزال ما لا نهاية له . بل ما كان يعلم انه سينزله وقد أخر
نزوله يكونون فاقديه الى حين ينزل كما يفقدون ما نزل ثم نسخ فيجعل سبحانه
لهذا بدلا ولهذا بدلا (وأما) ما انزله وأقره عندهم وأخر نسخه الى وقت فهذا
لا يحتاج الى بدل فانه نفسه باق ولو كان هذا مراداً لكان كل قرآن قد نسخه
يجب أن ينزل قبل نسخه ما هو مثله أو خير منه . ثم اذا نسخه يأتي بخير منه
أو مثله فيكون لكل منسوخ بدلان بدل قبل نسخه وبدل بعد نسخه . والبدل
الذى قبل نسخه لا ابتداء لنزوله فيجب أن ينزل من أول الامر فيلزم نزول ذلك
كله فى أول الوحى وهذا باطل قطعاً (فان) قيل فهذا يلزم فيما أخره فلم ينزله فان
له بدلا ولا وقت لنزول ذلك البدل قبل ما أخر نزوله وهو يريد إنزاله معلوم
والبدل الذى هو مثله أو خير منه يؤتي به فى كل وقت فان القرآن ما زال ينزل
وقد تضمن هذا أن كل ما أخر نزوله فلا بد أن ينزل قبله ماهو مثله أو خير منه
وهذا هو الواقع فان الذي تقدم من القرآن نزوله لم ينسخ كثير منه خير مما تأخر
نزوله . كالآيات المكية فان فيها من بيان التوحيد والنبوة والمعاد وأصول الشرائع
ما هو أفضل من تفاصيل الشرائع كمسائل الربا والنكاح والطلاق وغير ذلك. فهذا
الذى أخره الله مثل آية الربا فانها من أواخر ما نزل من القرآن . وقد روي انها
آخر ما نزل . وكذلك آية الدين والعدة والحيض ونحو ذلك قد أنزل الله قبله ماهو
خير منه من الآيات التى فيها من الشرائع ما هو اهم من هذا وفيها من الاصول ما
هو اهم من هذا . ولهذا كانت سورة الانعام أفضل من غيرها . وكذلك سورة
يسن ونحوها من السور التى فيها أصول الدين التى اتفق عليها الرسل كلهم صلوات الله
عليهم (ولهذا) كانت قل هو الله أحد مع قلة حروفها تعدل ثلث القرآن لان فيها

التوحيد . فعلم أن آيات التوحيد أفضل من غيرها وفاتحة الكتاب نزلت بمكة بلا
ريب كما دل عليه قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم) . وقد
ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال هي السبع المثاني والقرآن
العظيم الذي أوتيته . وسورة الحجر مكية بلا ريب وفيها كلام مشركي مكة وحاله
معهم فدل ذلك على ان ما كان الله ينسأه فيؤخر نزوله من القرآن كان ينزل قبله
ما هو أفضل منه . وقل يا أيها الكافرون مكية بلا ريب وهو قول الجمهور . وقد
قيل إنها مدنية وهو غلط ظاهر . وكذلك قول من قال الفاتحة لم تنزل الا بالمدينة
غلط بلا ريب ولو لم تكن معنا أدلة صحيحة تدلنا على ذلك لكان من قال انها مكية معه
زيادة علم . وسورة قل هو الله أحد اكثرهم على انها مكية . وقد ذكر في أسباب
نزولها سؤال المشركين بمكة وسؤال الكفار من أهل الكتاب اليهود بالمدينة.
ولا منافاة فان الله أنزلها بمكة أولا . ثم لما سئل نحو ذلك أنزلها مرة أخرى وهذا
مما ذكر طائفة من العلماء وقالوا ان الآية أو السورة قد تنزل مرتين وأكثر من
ذلك فما يذكر من اسباب النزول المتعددة قد يكون جميعه حقاً والمراد بذلك
انه اذا حدث سبب يناسبها نزل جبريل فقرأها عليه ليعلمه انها تتضمن جواب
ذلك السبب وان كان الرسول يحفظها قبل ذلك . والواحد منا قد يسأل عن
مسألة فيذكر له الآية أو الحديث ليبين له دلالة النص على تلك المسألة وهو
حافظ لذلك لكن يتلى عليه ذلك النص ليتبين وجه دلالته على المطلوب . فقد
تبين ان البدل لما أخر نزوله بخلاف ما كان عندهم لم ينسخ فان هذا لا بدل له ولو
قدر انه سينسخ فانه ما دام محكما لم يكن بدله خيراً منه . وكذلك البدل عن المنسوخ
يكون خيراً منه وأكثر السلف اطلقوا لفظ خير منه كما في القرآن ولم يستشكل
ذلك أحد منهم وفى تفسير الوالبي خير لكم فى المنفعة وارفق بكم . وعن قتادة
نأت بخير منها أو مثلها آية فيها تخفيف فيها رخصة فيها أمر فيها نهى . وهذان لم

يستشكل كونها خيراً من الأولى بل بينا وجه الفضيلة كما تقدم من أن الكلام
الأمري يتفاضل بحسب المطلوب فاذا كان المطلوب أنفع للمأمور كان طلبه أفضل
كما ان رحمة الله التى سبقت غضبه هي أفضل من غضبه . فما قاله تقرير للخيرية
لا نفي لها (فان) قيل فآية الكرسي قد ثبت انها أعظم آية في كتاب الله وانما
نزلت في سورة البقرة وهي مدنية بالاتفاق فقد أخر نزولها ولم ينزل قبلها ماهو
خير منها ولا مثلها (قيل) عن هذا أجوبة (أحدها) ان الله قال نأت بخير منها أو مثلها
ولم يقل بآية خير منها بل يأتي بقرآن خير منها أو مثلها . وآية الكرسي وان
كانت أفضل الآيات فقد يكون مجموع آيات أفضل منها . والبقرة وان كانت
مدنية بالاتفاق . وقد قيل انها أول مانزل بالمدينة فلا ريب ان هذا في بعض ما
نزل والا فتحريم الربا انما نزل متأخراً . وقوله (واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله)
من آخر ما نزل . وقوله (وأتموا الحج والعمرة لله) نزلت عام الحديبية سنة ست
باتفاق العلماء . وقد كانت سورة الحشر قبل ذلك فانها نزلت فى بني النضير باتفاق
الناس وقصة بني النضير كانت متقدمة على الحديبية بل على الخندق باتفاق الناس
وانما تأخر عن الخندق أمر بني قريظة فهم الذين حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم
عقب الخندق وأما بنو النضير فكان أجلاؤهم قبل ذلك باتفاق العلماء . وكذلك
سورة الحديد مدنية عند الجمهور وقد قيل انها مكية وهو ضعيف لان فيها ذكر
المنافقين وذكر أهل الكتاب وهذا انما نزل بالمدينة لكن يمكن انها نزلت قبل
كثير من البقرة . ففي الجملة نزول أول الحديد وآخر الحشر قبل آية الكرسي
ممكن والانعام ويس وغيرها نزل قبل آية الكرسي بالاتفاق .

(الجواب الثاني) انه تعالى انما وعد انه اذا نسخ آية أو نسأها أتي بخير منها أو
مثلها لما أنزل هذه الآية قوله (مانسخ من آية أو ننسأها نأت بخير منها أو مثلها)
فان هذه الآية جملة شرطية تضمنت وعده انه لابد أن يأتي بذلك وهو الصادق

الميعاد . فما نسخه بعد هذه الآية أو أنسأ نزوله مما يريد انزاله يأت بخير منه أو مثله . وأما
ما نسخه قبل هذه أو انسأه فلم يكن قد وعد حينئذ انه يأت بخير منه أو مثله . وبهذا أيضاً
يندفع الجواب عن الفاتحة فانه لاريب أنه تأخر نزولها عن سورة اقرأ باسم ربك
وهي أفضل منها . فعلم انه قد يتأخر انزال الفاضل وانه ليس كل ما تأخر نزوله نزل قبله
مثله أو خير منه . لكن اذا كان الموعود به بعد الوعد لم يرد هذا السؤال . يدل على
ذلك قوله ما ننسخ فان هذا الفعل المضارع المجزوم انما يتناول المستقبل وجوازم
الفعل إن وأخواتها ونواصبه تخلصه للاستقبال (وقد) يجاب بجواب ثالث وهو أن يقال
ما نزل في وقته كان خيراً لهم وان كان غيره خيراً لهم في وقت آخر وحينئذ فيكون
فضل بعضه على بعض على وجهين لازم كفضل آية الكرسي وفاتحة الكتاب
وقل هو الله أحد وفضل عارض بحيث تكون هذه أفضل فى وقت وهذه أفضل
فى وقت آخر . كما قد يقال في آية التخيير للمقيم بين الصوم والفطر مع الفدية مع
آية إيجاب الصوم عزماً وهذا كما ان الافعال المأمور بها كل منها فى وقته أفضل
فالصلاة الى القدس قبل النسخ كانت أفضل وبعد النسخ الصلاة إلى الكعبة
أفضل وعلى ما ذكر فيتوجه الاحتجاج بهذه الآية على انه لا ينسخ القرآن الا
قرآن كما هو مذهب الشافعي وهو أشهر الروايتين عن الامام أحمد بل هي المنصوصة
عنه صريحاً أن لا ينسخ القرآن الا قرآن يجيء بعده وعليها عامة أصحابه وذلك
لان الله قد وعد أنه لابد للمنسوخ من بدل مماثل أو خير ووعد بأن ما أنساه
المؤمنين فهو كذلك وان ما أخره فلم يأت وقت نزوله فهو كذلك وهذا كله
يدل على انه لا يزال عند المؤمن القرآن الذى رفع أو آخر مثله أوخير منه
ولو نسخ بالسنة فان لم يأت قرآن مثله أوخير منه فهو خلاف ماوعد الله
وان قيل بل يأتي بعد نسخه بالسنة كان بين نسخه وبين الاتيان بالبدل
مدة خالية عن ذلك وهو خلاف مقصود الآية فان مقصودها انه لابد من

المرفوع أو مثله أو خير منه وأيضاً فقوله نأت لم يرد به بعد مدة فان الذي نسأه وهو يريد انزاله قد علم انه ينزله بعد مدة فلما أخبر ان ما أخره يأتي بمثله أو خير منه قبل نزوله علم انه لا يؤخر الأمر بلا بدل فلو جاز أن يبقى مدة بلا بدل لكان مالم ينزل أحق بأن لا يكون له بدل من المنسوخ فلما كان ذاك قد حصل له بدل قبل وقت نزوله لتكميل الانعام فلأن يكون البدل لما نسخ من حين نسخ بعد أولى وأحري ولأنه قد علم أن القرآن نزل شيئا بعد شيء فلو كان ما ينزله بدلا عن المنسوخ يؤخره لم يعرف انه بدل ولم يتميز البدل من غيره ولم يكن لقوله نأت بخير منها أو مثلها فائدة إلا كالفائدة المعلومة لو لم ينسخ شيء غاية ما يقال انه لو لم ينسخ شيء لجاز أن لا ينزل بعد ذلك شيء واذا نسخ شيء فلا بد من بدله ولو بعد حين . وهذا مما يعتقدونه فانهم قد اعتادوا نزول القرآن عند الحوادث والمسائل والحاجة . فما كانوا يظنونه اذا نسخت آية أن لا ينزل بعدها شيء فانها لو لم تنسخ لم يظنوا ذلك فكيف يظنون إذا نسخت (الثانى) انه اذا كان قد ضمن لهم الاتيان بالبدل عن المنسوخ علم ان مقصوده انه لا ينقصهم شيء مما أنزله بل لا بد من مثل المرفوع أو خير منه ولو بقوا مدة بلا بدل لنقصوا . (وأيضاً) فان هذا وعد معلق بشرط والوعد المعلق بشرط يلزم عقبه فانه من جنس المعاوضة وذلك مما يلزم فيه اداء العوض على الفور اذا قبض المعوض كما اذا قال ما ألقيت من متاعك فى البحر فعلى بدله وليس هذا وعدا مطلقا كقوله لتدخلن المسجد الحرام (ولهذا) يفرق بين قوله والله لأعطينك مائة وبين قوله والله لا آخذ منك شيئاً إلا أعطيتك بدله فان هذا واجب على الفور . ومما يدل على المسألة ان الصحابة والتابعين الذين أخذ عنهم علم الناسخ والمنسوخ انما يذكرون نسخ القرآن بقرآن لا يذكرون نسخه بلا قرآن بل بسنة وهذه كتب الناسخ والمنسوخ المأخوذة عنهم انما تتضمن هذا

. وكذلك قول علىّ رضى الله عنه للقاص هل تعرف الناسخ من المنسوخ فى القرآن . فلو كان ناسخ القرآن غير القرآن لوجب أن يذكر ذلك أيضاً . (وأيضاً) الذين جوزوا نسخ القرآن بلا قرآن من أهل الكلام والرأى انما عمدتهم انه ليس فى العقل ما يحيل ذلك وعدم المانع الذى يعلم بالعقل لا يقتضي الجواز الشرعي فان الشرع قد يعلم بخبره ما لا علم للعقل به . وقد يعلم من حكمة الشارع التى علمت بالشرع ما لا يعلم بمجرد العقل . ولهذا كان الذين جوزوا ذلك عقلا مختلفين فى وقوعه شرعا . وإذا كان كذلك فهذا الخبر الذي فى الآية دليل على امتناعها شرعا (وأيضاً) فان الناسخ مهيمن على المنسوخ قاض عليه مقدم عليه فينبغي أن يكون مثله أو خيراً منه كما أخبر بذلك القرآن . ولهذا لما كان القرآن مهيمنا على ما بين يديه من الكتاب بتصديق ما فيه من حق وإقرار ما أقره ونسخ ما نسخه كان أفضل منه . فلو كانت السنة ناسخة للكتاب لزم ان تكون مثله أو أفضل منه وأيضاً فلا يعرف في شيء من آيات القرآن انه نسخه الا قرآن والوصية للوالدين والاقربين منسوخة بآية المواريث كما اتفق على ذلك السلف قال الله تعالى (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) . والفرائض المقدرة من حدوده ولهذا ذكر ذلك عقب ذكر الفرائض فمن أعطي صاحب الفرائض اكثر من فرضه فقد تعدي حدود الله بأن نقص هذا حقه وزاد هذا على حقه فدل القرآن على تحريم ذلك وهو الناسخ .

﴿فصل﴾ والناس في هذا المقام الذي هو مقام حكمة الأمر والنهي على ثلاثة أصناف فالمعتزلة القدرية يقولون ان ما أمر به ونهى عنه كان حسناً وقبيحا قبل الأمر والنهي والأمر والنهى كاشف عن صفته التى كان عليها لا يكسبه حسنا

ولا قبحا . ولا يجوز عندهم أن يأمر وينهى لحكمة تنشأ من الأمر نفسه .
ولهذا انكروا جواز النسخ قبل التمكن من فعل العبادة كما في قصة الذبيح ونسخ
الخمسين صلاة التي أمر بها ليلة المعراج الى خمس ووافقهم على منع النسخ قبل
وقت العبادة طائفة من أهل السنة المثبتين للقدر لظنهم انه لابد من حكمة تكون
في المأمور به والمنهى عنه . فلا يجوز أن ينهي عن نفس ما أمر به . وهذا قياس
من يقول ان النسخ تخصيص في الازمان . فان التخصيص لا يكون برفع جميع
مدلول اللفظ لكنهم تناقضوا . والجهمية الجبرية يقولون ليس للامر حكمة تنشأ
لا من نفس الأمر ولا من نفس المأمور به ولا يخلق الله شيئا لحكمة ولكن
نفس المشيئة أوجبت وقوع ما وقع وتخصيص أحد المتماثلين بلا مخصص وليست
الحسنات سببا للثواب ولا السيئات سببا للعقاب ولا لواحد منهما صفة صار بها
حسنة وسيئة بل لا معنى للحسنة الا مجرد تعلق الأمر بها ولا معنى للسيئة الا
مجرد تعلق النهى بها فيجوز أن يأمر بكل أمر حتى الكفر والفسوق والعصيان
ويجوز أن ينهى عن كل أمر حتى عن التوحيد والصدق والعدل وهو لو فعل
لكان كما لو أمر بالتوحيد والصدق والعدل ونهي عن الشرك والكذب والظلم
هكذا يقول بعضهم وبعضهم يقول يجوز الأمر بكل مالا ينافي معرفة الامر
بخلاف ماينافى معرفته وليس في الوجود عندهم سبب ولكن اذا اقترن أحد
الشيئين بالآخر خلقا أو شرعا صار علامة عليه فالاعمال مجرد علامات محضة لا
أسباب مقتضية وقالوا أمر من لم يؤمن بالايمان معناه إنى أريد أن أعذبكم وعدم
ايمانكم علامة على العذاب وكذلك أمره بالايمان من علم انه يؤمن معناه إني أريد
أن أثيبك والايمان علامة وهؤلاء منهم من ينفى القياس في الشرع والتعليل للاحكام
ومن أثبت القياس منهم لم يجعل العلل الا مجرد علامات ثم انه مع هذا قد علم ان الحكم
في الاصل ثابت بالنص والاجماع وذلك دليل عليه فأى حاجة الى العلة وكيف يتصور

ان تكون العلة علامة على الحكم في الاصل وانما تطلب علته بعد أن يعلم ثبوت الحكم
وحينئذ فلا فائدة فى العلامة وأما الفرع فلا يكون علة له حتى يكون علة للأصل
. وهؤلاء منهم من ينكر العلل المناسبة ويقول المناسبة ليست طريقا لمعرفة
العلل وهم أكثر أصحاب هذا القول ومن قال بالمناسبة من متأخريهم يقول انه
قد اعتبر فى الشرع اعتبار المناسب فيستدل بمجرد الاقتران لا لأن الشارع حكم بما
حكم به لتحصيل المصلحة المطلوبة بالحكم ولا لدفع مفسدة أصلا فان عندهم انه ليس
في خلقه ولا أمره لام كي لجهم رأس الجبرية وأتباعه في طرف والقدرية في
الطرف الآخر . وأما الصحابة والتابعون لهم باحسان وأئمة الاسلام كالفقهاء
المشهورين وغيرهم ومن سلك سبيلهم من أهل الفقه والحديث والمتكلمين فى
أصول الدين وأصول الفقه فيقرون بالقدر ويقرون بالشرع ويقرون بالحكمة
لله في خلقه وأمره لكن قد يعرف أحدهم الحكمة وقد لا يعرفها . ويقرون
بما جعله من الاسباب وما فى خلقه وأمره من المصالح التي جعلها رحمة بعباده
مع انه خالق كل شيء وربه ومليكه أفعال العباد وغير أفعال العباد وانه ما شاء
كان ومالم يشأ لم يكن وان كل ما وقع من خلقه وأمره فعدل وحكمه سواء عرف
العبد وجه ذلك أو لم يعرفه

(والحكمة) الناشئة من الأمر ثلاثة أنواع أحدها أن يكون في نفس
الفعل وإن لم يؤمر به كما فى الصدق والعدل ونحوهما من المصالح الحاصلة لمن
فعل ذلك وان لم يؤمر به والله يأمر بالصلاح وينهي عن الفساد . والنوع الثانى
ان ما أمر به ونهي عنه صار متصفا بحسن اكتسبه من الأمر وقبح اكتسبه
من النهى كالخمر التى كانت لم تحرم ثم حرمت فصارت خبيثة والصلاة الى الصخرة
التى كانت حسنة فلما نهي عنها صارت قبيحة . فان ما أمر به يحبه ويرضاه .
وما نهى عنه يبغضه ويسخطه . وهو اذا أحب عبداً ووالاه أعطاه من الصفات

الحسنة ما يمتاز بها على من أبغضه وعاداه . وكذلك المكان والزمان الذى يحبه ويعظمه كالكعبة وشهر رمضان يخصه بصفات يميزه بها على ماسواه بحيث يحصل في ذلك الزمان والمكان من رحمته واحسانه ونعمته مالا يحصل في غيره . فان قيل الخمر قبل التحريم وبعده سواء فتخصيصها بالخبث بعد التحريم ترجيح بلا مرجح قيل ليس كذلك بل انما حرمها في الوقت التي كانت الحكمة تقتضى تحريمها . وليس معنى كون الشيء حسنا وسيئاً مثل كونه أسود وأبيض بل هو من جنس كونه نافعاً وضارا وملائما ومنافراً وصديقاوعدوا ونحو هذا من الصفات القائمة بالموصوف التى تتغير بتغير الاحوال فقد يكون الشيء نافعا فى وقت ضارا فى وقت والشيء الضار قد يترك تحريمه اذا كانت مفسدة التحريم أرجح كما لو حرمت الخمر في أول الاسلام فان النفوس كانت قد اعتادتها عادة شديدة ولم يكن حصل عندهم من قوة الايمان ما يقبلون ذلك التحريم ولا كان إيمانهم ودينهم تاما حتي لم يبق فيه نقص إلا ما يحصل بشرب الخمر من صدها عن ذكر الله وعن الصلاة فلهذا وقع التدريج فى تحريمها فأنزل الله أولا فيها (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) ثم أنزل فيها لما شربها طائفة وصلوا فغلط الامام فى القرآءة آية النهى عن الصلاة سكارى ثم أنزل الله آية التحريم . (والنوع الثالث) أن تكون الحكمة ناشئة من نفس الأمر وليس في الفعل البتة مصلحة لكن المقصود ابتلاء العبد هل يطيع أو يعصي . فاذا اعتقد الوجوب وعزم على الفعل حصل المقصود بالامر فينسخ حينئذ كما جري للخليل فى قصة الذبح فانه لم يكن الذبح مصلحة ولا كان هو مطلوب الرب في نفس الأمر بل كان مراد الرب ابتلاء ابراهيم ليقدم طاعة ربه ومحبته على محبة الولد ولا يبقي فى قلبه التفات الى غير الله فانه كان يحب الولد محبة شديدة وكان قد سأل الله أن يهبه اياه وهو خليل الله فأراد تعالى تكميل خلته لله بان لا يبقي فى قلبه مايزاحم

به محبة ربه (فلما اسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين) ومثل هذا الحديث الذي فى صحيح البخاري حديث أبرص واقرع واعمى كان المقصود ابتلاءهم لا نفس الفعل وهذا الوجه والذى قبله مما خفى على المعتزلة فلم يعرفوا وجه الحكمة الناشئة من الأمر ولا من المأمور لتعلق الأمر به بل لم يعرفوا الا الاول والذين انكروا الحكمة عندهم الجميع سواء لا يعتبرون حكمة ولا تخصيص فعل بأمر ولا غير ذلك كما قد عرف من أصلهم . ثم ان كثيراً من هؤلاء وهؤلاء يتكلمون في تفسير القرآن والحديث والفقه وأصول الفقه فيبنون على تلك الاصول التى لهم ولا يعرف حقائق أقوالهم الا من عرف مآخذهم . فقول القائل ان قل هو الله أحد وفاتحة الكتاب قد تكون كل واحدة منهما فى نفسها مماثلة لسائر السور وآية الكرسي مماثلة لسائر الآيات . وانما خصت بكثرة ثواب قارئها . أو لم تتعين الفاتحة فى الصلاة ونحو ذلك الا لمحض المشيئة من غير أن يكون فيها صفة تقتضى التخصيص هو مبنى على أصول جهم فى الخلق والأمر وان كان قد وافقه عليه أبو الحسن وغيره . وكتب السنة معروفة التى فيها آثار السلف يذكر فيها هذا وهذا . ويجعل هذا القول قول الجبرية المتبعين لجهم فى أقوال القدرية الجبرية المبتدعة . والسلف كانوا ينكرون قول الجبرية الجهمية كما ينكرون قول المعتزلة القدرية وهذا معروف عن سفيان الثوري والاوزاعي والزبيدى وعبد الرحمن بن مهدى واحمد بن حنبل وغيرهم . وقد ذكر ذلك غير واحد من أتباع الائمة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وسائر أهل السنة في كتبهم كما قد بسط في مواضعه وذكرت أقوال السلف والائمة في ذلك . وانما نبهنا هنا على هذا الاصل لان كثيراً من الناس لا يعرف ذلك ولا يظن قول أهل السنة في القدر الا القول الذي هو عند أهل السنة قول جهم وأتباعه المجبرة أو مايشبه

ذلك . كما ان منهم من يظن ان قول أهل السنة في مسائل الاسماء والاحكام والوعد والوعيد هو أيضاً القول المعروف عند أهل السنة بقول جهم . و هذا يعرفه من يعرف أقوال الصحابة والتابعين وأئمة الاسلام المشهورين في هذه الاصول . وذلك موجود في الكتب المصنفة التي فيها أقوال جمهور الائمة التي يذكر فيها أقوالهم في الفقه كثيراً والعلماء الاكابر من اتباع الائمة الاربعة على مذهب السلف في ذلك وكثير من الكتب المصنفة التي يذكر فيها أقوال السلف على وجه الاتباع من تصنيف أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة واحمد بن حنبل وغيرهم يذكرون ذلك فيها (وينبغي) للعاقل أن يعرف ان مثل هذه المسائل العظيمة التي هي من أعظم مسائل الدين لم يكن السلف جاهلين بها ولا معرضين عنها . بل من لم يعرف ماقالوه فهو الجاهل بالحق فيها وباقوال السلف وبما دل عليه الكتاب والسنة . والصواب في جميع مسائل النزاع ما كان عليه السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان وقولهم هو الذي يدل عليه الكتاب والسنة والعقل الصريح وقد بسط في مواضع كثيرة والله سبحانه أعلم

هذا آخر الجواب المتضمن تفضيل بعض القرآن على بعض وبعض الصفات على بعض والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

يقول مصححه العبد المسكين محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين اجمعين

الحمد لله حمدا يليق بجلاله . وصلى الله على سيدنا محمد وآله . (وبعد) فقد تم بحمد الله طبع كتاب جواب اهل الايمان لشيخ الاسلام ابي العباس تقي الدين احمد بن تيمية نور الله مرقده وهو على صغر حجمه قد اشتمل على مالا يوجد في غيره من امهات مسائل الاعتقاد فجزي الله مؤلفه خير الجزاء انه سميع الدعاء . وكان تمام طبعه في شهر ذي القعدة سنة ١٣٢٢ من هجرة اشرف الرسل صلى الله عليه وعلى آله وسلم